غوث العباد ببيان الرشاد

تأليف

حضرة صاحب الفضيلة مالك البيان وحامل لواء البرهان

المغفور له الأستاذ الشيخ

مصطفى أبو سيف الحمامي

أحد علماء الأزهر الشريف

وخطيب المسجد الزينبي سابقا

الطبعة الثانية

١٣٧٠ هـ — ١٩٥٠ م

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

أدْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .

[قرآن كريم]

بسم الله الرحمن الرحيم

ياغيات المستغيثين ، بأسباب وبغير أسباب ، أحمدك لأنك أكرم الأكرمين ، وأرجو رحمتك إذ أنت الحليم التواب . وأشهد أن لا إله سواك فانك الخلاق العليم ، وعدم يامولاى كل ما عداك لولاك ، ولا استثناء من هذا الحكم العظيم . وأشهد منشرح القلب منطلق اللسان ، أن أحبابك لهم عندك جاه كبير ، من والاهم تواليه بجزيل الاحسان ، ومن ناوأهم تهينه هنا وفى يوم المصير .

أما بعد : فلما كتبت مقدمة ديوانى الثالث « منتهى آمال الخطباء . ومنار المسترشدين النبلاء » استتبع الكلام فى بعض فصولها كلاما طال وطاب ، أبنت به حقائق لا تزال خفية لليوم على طوائف من الناس - رأى ذلك بعض قادة الأمة العلماء - لاحرم الله الوجود منهم - فسروا به وأثنوا عليه وبالغوا فى الثناء .

فقال فيه حضرة صاحب الفضيلة رجل العلم والتحقيق والصفاء ولسان الدفاع عن الاسلام اليوم « الشيخ يوسف الدجوى » أحد هيئة كبار العلماء بديارنا المصرية أثناء تقريظه للديوان ما نصه : « أما مقدمة الديوان فهى مقدمة تفوق المقاصد . أتى فيها من التحقيق ما يقمع كل مكابر ، ومن الحق الصراح ما تنشرح به الصدور

وتقر العيون ، ومن السنة النبوية ما يذعن له العلماء ويشهد له أساطين الكبراء » .

وقال فيه حضرة صاحب الفضيلة العالم الجليل شيخ العلماء بوادى الفرات ، الأستاذ البحاثة الكبير « الشيخ محمد سعيد العرفى » فى تقريظه لهذا الديوان ما لفظه : ولكن لو دريت أنه أتى فى المقدمة بما بهر العقول من تبيان مجد الإسلام ، وعظمة مقام النبوة ، ورفعة أصحاب الكمال ، بأبلغ العبارات ، وأفصح الجمل ، وأرصن الكلم ، وأحسن الأساليب مدللا على ذلك بالحجج الناصعة ، والبراهين القاطعة ، بحيث لو قلت يجب على كل طالب علم متمسك بدينه أن يطالعها ليغترف من بحرها الزاخر وعبابها الخضم ، ما جادلنى إلا حسود مكابر ، أو جاهل متفيقه ، إلى آخر ما قال .

وقال فيه حضرة صاحب الفضيلة العلامة الكبير ، والمحدث الشهير ، فخر الأقطار المغربية وخادم العلم بالحرمين الشريفين ونزيل مصر الآن الأستاذ « الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطى » ما يلى : أما مقدمة الديوان فلعظم مزيتها كادت تغنى عن ضخام المجلدات ، لما اشتملت عليه من جميل الصفات فى دقائق المعتقدات ؛ فالأولى أن تجعل رسالة مستقلة ، ليرد عذب حياضها أكابر العلماء الأجلة .

إن هـذا الثناء على تلك المقدمة من أولئك القادة الهداة ، جعلنى أفرح فرح شكر له سبحانه وتعالى على أن أظهر على يدىّ ما جعل مثل الشيخ الشنقيطى - فى فضله يستقل عليه أن يكون موردا للعلماء الأجلة ، والذى يراه أن يكون ذلك حياضا عذبة يردها الأكابر من العلماء الأجلة . وليس الشيخ الشنقيطى وحده الذى اقترح طبع ذلك الفصل من تلك المقدمة فى رسالة مستقلة ، بل وافقه عليه الكثير من أفاضل العلماء ، وشددوا علىّ فى ذلك ليكون النفع بها أعم .

فلم يسعنى إلا النزول على إرادتهم ، والمبادرة إلى تحقيق أمنيتهم ، ودعوتها :

غوث العباد ببيان الرشاد

وقد تفضل هؤلاء العلماء الأجلاء فقرظوا تلك الرسالة تقريظا ، قليلا عليه أن يكتب بماء الذهب ، وأجزلوا فضلهم فيه على « بوسام » من الشرف ، منحونيه لم أسمع أن منحوه أحدا قبلى : يعرفه من يرى ذلك التقريظ (١) ، وهو شرف أتقبله شاكرا مولاى عليه ، ومعتبرا أن ذلك تشجيع من حضراتهم لى .

وبموافقتهم لى على ما تضمنته تلك المباحث ، أصبح ذلك أمرا مجمعا عليه من علماء الإسلام ، وهم أئمة الأمة وأدلاؤها فى دياجى المعضلات .

وإنى أسأل ربى ، وهو أكرم مسئول ، أن يتقبل ذلك منى ، وأن ينفع به عباده .

وها أنا ذا أقدم بيد الإخلاص والأدب تلك المباحث لحضرات القراء الأفاضل ، ولا ينتهى سرورى إن رأوها أهلا لأن ينظروا إليها والسلام ؟

مصطفى أبو سيف

الحمامى

---

(١) هو تلقيبهم لفضيلته بملك البيان كما ورد ببعض التقاريظ بآخر الكتاب .

حياة الأنبياء

صلوات الله وسلامه عليهم فى البرزخ حياة حقيقية

روى ابن ماجه عن أبى الدرداء أنه صلى الله عليه وسلم قال : « أَكْثِرُوا مِنَ الصَّلاةِ عَلَيَّ يَوْمَ الجُمُعَةِ فإنَّهُ مَشْهُودٌ تَشْهَدُهُ المَلائِكَةُ ، وإنَّ أحَدًا لَنْ يُصَلِّيَ عَلَيَّ إلاَّ عُرِضَتْ عَلَيَّ صَلاتُهُ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْها ، قال : قلتُ وبعدَ الموتِ ؟ قال : إنَّ اللهَ حَرَّمَ على الأرْضِ أنْ تأكُلَ أجْسادَ الأنْبِياءِ عَلَيْهِم السَّلامُ » ووافق ابن ماجه أحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم فى رواية قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » . ومن هذا الوادى ما رواه ابن سعد والبزار بسند صحيح ، ورواه أيضا القاضى إسماعيل والحارث فى مسنده وهو قوله صلى الله عليه وسلم «حَيَاتى خيرٌ لَكُمْ تُحَدِّثونَ ويُحْدَثُ لَكُمْ : أى تحدثون شئونا ويحدث لكم أحكامها ، فاذا أنا متُّ كانَتْ وَفاتى خيرًا لكُمْ ، تُعْرَضُ عَلَيَّ أعمالُكُمْ ؛ فانْ رأيْتُ خيرًا حَمِدْتُ اللهَ ، وإنْ رأيْتُ شَرًّا اسْتَغْفَرْتُ لكُمْ » فهذه أعمال أمة بأسرها صلاة عليه صلى الله عليه وسلم كما يفهم من الحديث الأول ، وسواها كما يفهم من الحديث الثانى . أخبر صلى الله عليه وسلم - وهو لاينطق عن الهوى - أنها تعرض عليه فيحمد الله لخيرها ويستغفره لشرها . ومن فى الدنيا له ذرة من العقل ينكر حياة من هذا حاله . ولا تفهم أن هذا العرض على الروح بل هو على البدن مع روحه من غير شك ، كما يفيده قوله عليه الصلاة والسلام « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » جوابا لمن استبعد عرض العمل عليه صلى الله عليه وسلم بعد الموت ، وسأله السؤال المارّ فاهما أن هذا العرض إنما يكون عليه

صلى الله عليه وسلم وهو ببدنه وبدنه بعد الموت بلى وانتهى ، فأفهمه صلى الله عليه وسلم أن أجسام الأنبياء حية لا تبلى ، وهذا الغرض عليه ببدنه ليقتلع من نفسه ذلك الاستبعاد .

ويزيدك بصيرة في حياة الأنبياء في قبورهم قوله صلى الله عليه وسلم : « الأَنْبِيَاءُ أَحْيَاءٌ فِي قُبُورِهِمْ يُصَلُّونَ » رواه أبو يعلى والبيهقي ، وهذا حديث لم يقتصر على حياته هو صلى الله عليه وسلم ، بل تعدى إلى جميع الأنبياء ، فحكم عليهم بأنهم أحياء في قبورهم ، يفعلون فعل الأحياء في الدنيا ، وهو الصلاة ذات الركوع والسجود والقيام والقعود والقراءة وذكر الله تعالى ، وهي أعمال لو شك شاكٌّ في حياة فاعلها لكان شاكا في حياة نفسه .

وقد جاء هذا المعنى كذلك في قوله صلى الله عليه وسلم « مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى مُوسَى عِنْدَ الْكَثِيبِ الأَحْمَرِ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ » رواه ابن عساكر والطبراني والنسائي وابن حبان وابن خزيمة ومسلم . ولا يتردد الناظر هنا في أن الصلاة هي الصلاة ذات الركوع والسجود ، فان الشرع إذا أطلق الصلاة لا يفهم منها إلا ذلك المعنى .

وكذلك جاء هذا أيضا في قوله صلى الله عليه وسلم « وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الأَنْبِيَاءِ » إلى أن قال « وَإِذَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ قَائِمٌ يُصَلِّي أَشْبَهُ النَّاسِ بِهِ صَاحِبُكُمْ » يعني نفسه صلى الله عليه وسلم « فَحَانَتِ الصَّلاةُ فَأَمَمْتُهُمْ » الحديث ، رواه مسلم من حديث الإسراء . وهذا الحديث يذكر شبه سيدنا إبراهيم ، وشبهه إنما يكون ببدنه الحقيقي ، فدل ذلك قطعا على أنه صلى الله عليه وسلم صلى بهم إماما وهم بأبدانهم التي كانوا عليها في الدنيا .

وكذلك جاء ذكر وصف أجسامهم صلى الله عليهم جميعا وسلم

في قوله صلى الله عليه وسلم « رأَيْتُ عِيسَى وَمُوسَى وإِبْرَاهِيمَ : فأَمَّا عِيسَى فأَحْمَرُ جَعْدٌ » أي مجتمع الخلق شديده « عَرِيضُ الصَّدْرِ ، وأَمَّا مُوسَى فآدَمُ » أي أسمر « جَسِيمٌ سَبْطٌ » حسن القدّ « كأَنَّهُ مِنْ رِجالِ الزُّطِّ » صنف من السودان والهنود « وأَمَّا إِبْراهِيمُ فانْظُرُوا إلى صاحِبِكُمْ » يعني نفسه صلى الله عليه وسلم .

فها هو ذا عليه الصلاة والسلام كما يصف بدن سيدنا عيسى الحي يصف بدن سيدنا موسى وسيدنا إبراهيم عليهم الصلاة والسلام المنتقلين من هذه الدار ، وهل يقال جسيم وحسن القدّ إلا للحي بجسمه الحقيقي الذي خلق به ؟ .

وإني أزيدك يقينا بهذا المعنى وأذهب بك في حياة الأنبياء إلى أبعد مما سمعت ؛ فقد روى الطبراني أنه صلى الله عليه وسلم قال « كأَنِّي أَنْظُرُ إلى مُوسَى في هَذا الوادِي مُحْرِماً بَيْنَ قَطْوانِيَّتَيْنِ » القطوانية العباءة البيضاء المنسوبة إلى قطوان بلدة بالعراق . وروى ابن ماجه وأحمد ومسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال « كأَنِّي أَنْظُرُ إلى مُوسَى هابِطاً مِنَ الثَّنِيَّةِ » مكان مرتفع « وَلَهُ جُؤَارٌ » صوت مرتفع « إلى اللهِ تعالى بالتَّلْبِيَةِ ؛ كأَنِّي أَنْظُرُ إلى يُونُسَ بْنِ مَتَّى عَلَى ناقَةٍ حَمْراءَ جَعْدَةٍ » مجتمعة الخلق شديدته « عَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ خِطامُ ناقَتِهِ خُلْبَةٌ » ليف « مارّاً بِهَذا الوادِي مُلَبِّياً » وهذا الحديث وماقبله يثبتان أن الأنبياء صلى الله عليهم وسلم يخرجون من قبورهم بأبدانهم الحقيقية لابسين الثياب ماشين أو راكبين ، ويذهبون إلى حيث يحجون ويلبون ، ويراهم بعينه من كشف الله عن بصيرته من العباد . وأنت لاتشك في أن سيدنا موسى وسيدنا يونس انتقلا إلى الرفيق الأعلى قبل أن يوجد النبي صلى الله عليه وسلم بدهور ، وإذن

فلا شك أن نظره إليهما وهما ذاهبان إلى الحج يلبيان ، إنما كان وهما في عالم البرزخ . كل هذا نقوله إذا كان ما نروى كلاما موضوعا وضعا عربيا ، وعلى قواعد الوضع العربي تفهمه العقول ، وليس هنالك استحالة عقلية أو شرعية تمنع من فهمه على ظاهره ، وإنا بعد أن نفهمه هكذا لانستطيع أن نتردد في حياة الأنبياء في قبورهم الحياة الحقيقية التي يفعلون معها ما يفعله أقوياء الرجال ، فإن السفر إلى الحج ليس من الأمور التي يستطيع فعلها كل حي ، وإنا إذا ترددنا في ذلك فقد وقفنا أمام كلام الرسول صلى الله عليه وسلم موقف التكذيب ، وهو موقف لايقوى عليه ذو دين ، خصوصا إذا لاحظنا ما قرره العلماء من أن العدول عن ظواهر النصوص من غير مقتض قاطع ـ إلى معان يدّعيها أهل الباطن إلحاد وكفر .

وهذا حديث المعراج ، وهو متفق عليه ، يصرح أنه صلى الله عليه وسلم رأى في السماوات جماعة من الأنبياء: سيدنا آدم وسيدنا إبراهيم وسيدنا يوسف وسيدنا موسى وسيدنا هرون وسيدنا يحيى وسيدنا عيسى عليهم الصلاة والسلام ، وكلمه كل واحد منهم بما كلمه . ونحن معشر الأمة المحمدية لليوم وإلى انقضاء الدنيا نتمتع براحة ما أجلها وما أعظمها لولا سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم ما رأيناها ولكُنا في شقاء يومىّ طول حياتنا بأداء خمسين صلاة فرضها علينا ربنا عز وجل في اليوم وبلغها لنبينا صلى الله عليه وسلم ، فأشار إليه هذا الوجيه الكليم أن يسأل ربه التخفيف عن أمته ، فسأله ، ثم سأله حتى جعلها الكريم الرحيم خمسا فقط ، كما أنا لليوم وبعد اليوم نذكر ربنا بقول : سبحان الله والحمد لله الخ ، امتثالا لوصية سيدنا إبراهيم الخليل التي وصلت إلينا في قول نبينا صلى الله عليه وسلم « رأيْتُ إبْراهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي ، فقَالَ : يا مُحَمَّدُ أقْرِئْ أُمَّتَكَ السَّلامَ »

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا خليل الرحمن ، وصلى الله وسلم وبارك عليك وعلى آلك « وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء ، وأنها قيعان » أماكن ممهدة واسعة « وغراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله » رواه الطبرانى .

وهل تشك فى أن النبى صلى الله عليه وسلم إذا قال: رأيت فلانا وفلانا يقظة فانما يريد أنه رآهم صلى الله عليه وسلم بأشخاصهم وأرواحهم ؟ خصوصا إذا كلموه وروى عنهم مثل ما سمعت . وعالم البرزخ تغلب فيه أحكام الأرواح على أحكام الأشباح ، فليس بغريب حينئذ أن يرى صلى الله عليه وسلم سيدنا موسى فى تلك الليلة فى قبره يصلى ويراه فى السماوات . والأرواح ليس ببعيد عليها أن ترقى السماوات فى قليل من الزمن بلا سبب ترقى عليه كالملائكة تماما .

وأظنك بعد هذا البيان أصبحت ، وحياة الأنبياء فى قبورهم عندك من الأمور البديهية ، غير أنى أرجو أن لاتنسى مع ذلك كله أن الأنبياء فى عالم البرزخ الآن ، فلا تقل إذا كانوا أحياء فلماذا لا نراهم يذهبون بيننا ويجيئون كما كانوا فى الدنيا ؟ فان لعالم البرزخ أحكامه ، كما لايخفى على فطنتك أن هذا الذى نشرحه الآن ليس معنى انفردنا نحن بالقول به ، بل يشاركنا فى تقريره واعتقاده علماء الإسلام متقدموهم ومتأخروهم ، ولم ننقل عن أحد منهم ما يؤيدنا ؛ لأنا وجدنا صرائح من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤيدنا كما سمعت ، وليس من اللياقة فى شىء أن يلتفت إلى الناس من معه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد كان هذا المعنى من الأوليات فى عصر النبوة أيام أن كانت العقائد تتلقى غضة طرية من مهبط الوحى صلى الله عليه وسلم ، وكانت القلوب إذ ذاك فى منتهى صحتها لم يطرأ عليها من أمراض الشبهات والشكوك شىء .

وإن شئت فاسمع ما تقوله أمنا الجليلة السيدة عائشة رضي الله عنها « كنت أدخل بيتي الذي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي ، وإني واضع - التذكير باعتبار أنها شخص - ثوبي وأقول : إنما هو زوجي وأبي ، فلما دفن عمر معهم ، فوالله ما دخلت إلا وأنا مشدودة عليّ ثيابي حياء من عمر » رواه أحمد . وهو تقرير منها واضح جدا أنه صلى الله عليه وسلم بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى لايزال زوجها ، لاحرج عليها أن يرى منها ما لايراه الأجنبي ، وهو لايكون كذلك إلا إذا كان حيا حياة حقيقية . وهذا يؤيد ما صرح به بعض العلماء من أن نساءه صلى الله عليه وسلم ما كنّ في عدة منه صلى الله عليه وسلم عقب انتقاله من هذه الدار ، بل كان نكاحهن لايزال قائما بينه وبينهن ، ومن أجل هذا حرم على غيره صلى الله عليه وسلم أن ينكحهن ، رضى الله عنهن .

ومما يدل دلالة واضحة على حياة الأنبياء صلى الله عليهم وسلم بعد انتقالهم من الدنيا أن المال الذي يتركونه لايورّث عنهم ، وإنما يكون صدقة من الصدقات كما يتصدق الحي بماله ، ولو كانوا أمواتا لكانت تركتهم كسائر التركات الأموات تورّث عنهم لوارثيهم .

وإني ألفت نظر القارئ إلى تحفظ السيدة عائشة رضى الله عنها بالتستر البالغ إذا أرادت الدخول على زوجها وأبيها لما دفن معهما سيدنا عمر رضي الله عنه حياء منه ، فإن ذلك يفهمنا أنها لاتشك في أن سيدنا عمر يراها ، كما أنها لاتشك في أن والدها يراها ، ولكنها ما كانت تتحفظ منه بذلك التستر لأنه أبوها يجوز له أن يرى من بدنها ما ينكشف إذا ألقت ثيابها التي تستتر بها من الأجانب . وهذا الذي تصرح به هذه السيدة الجليلة لم تخترعه من نفسها بل صرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله « وَمَا أُبَالِي قَضَيْتُ حَاجَتِي عَلَى القُبُورِ أو في السُّوقِ ، والنَّاسُ

يَنْظُرُونَ » رواه ابن ماجه من حديث ، وهو خبر نبوى يفهم في وضوح أن الأموات يرون ما يفعل عندهم كما يرى الأحياء بلا تفاوت ، ولذلك لم يفرّق صلى الله عليه وسلم بين من يقضى حاجته عندهم وبين من يقضيها في السوق مجتمع الناس وهم ينظرون إليه — في أنه يُرى لهؤلاء كما يُرى لهؤلاء وهو منكشف العورة ، وحينئذ لايجوز ذلك عند الأموات كما لايجوز أمام الأحياء — وإنى آخذ بيدك إلى حيث أريك أكثر من هذا ؛ أريك أن أفراد المؤمنين الذين ليسوا برسل ولا أنبياء ولا أولياء إذا زارهم زائر وسلم عليهم ردوا عليه السلام فوق رؤيتهم له . وإن استغربت هذا فاسمع الدليل . روى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم كان يعلّم الصحابة إذا خرجوا إلى زيارة أهل المقابر أن يقولوا لهم « السَّلامُ عليكُمْ أهْلَ الدِّيارِ مِنَ المُؤْمِنِينَ والمُسْلِمِينَ والمُسْلِمات وإنَّا إنْ شاءَ اللهُ بِكُمْ لاحِقُونَ . أسألُ اللهَ لَنا ولَكُمُ العافِيَةَ » فهل يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يسلم الناس على من لايسمع ولا يردّ ؟ أظن أن ذلك تقشعرّ منه جلود المؤمنين بحكمة ربنا عز وجل .

بل الأمر في طبقات المؤمنين فوق ما رويت لك ؛ فقد روى الترمذى والحاكم وابن مردويه وابن نصر والبيهقى في الدلائل عن ابن عباس رضى الله عنه « أن بعض الصحابة ضرب خباءه على قبر ، وهو لايحسب أنه قبر إنسان ، فاذا هو قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها ، فأخبر بذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم . فقال له عليه الصلاة والسلام : هى المانعة هى المنجية تنجيه من عذاب القبر » وهل يبقى من شك في حياة امرئ يقرأ القرآن يعبد الله تعالى بصوت مرتفع به لدرجة أن يسمعه من بينه وبينه حائل عظيم من أتربة وأحجار .

إلا أنه ينبغى أن يعلم أن هذه الحياة لاتبلغ درجة حياة الأنبياء ،

بل الشهداء فى سموّ مقامهم لاتبلغ درجة حياتهم درجة حياة الأنبياء ، وإن كان القرآن يخبر عنهم أنهم أحياء يرزقون ويفرحون ويستبشرون ، فانه ليس بمعقول أن يبلغ فرد من أفراد أمة أيا كان مركزه سموّا وكمالا عند ربه ، المبلغ الذى بلغه رسوله .

بل لأكثر من كل ما سبق أذهب بك ؛ فقد روى البخارى عن أبى طلحة رضى الله عنه « أن النبى صلى الله عليه وسلم قامَ على شَفَةِ الركية » البئر التى لم تطو « فجعَلَ يُناديهِمْ بأسمائِهِمْ » قتلى بدر الكفار الذين ألقوا فى تلك البئر « يا فُلانُ بنَ فُلان وفُلانُ بنَ فُلان أيَسُرُّكُمْ أنَّكُمْ أطَعْتُمُ اللهَ وَرَسولَهُ ؟ فإنَّا قَدْ وَجَدنا ماوَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا ، فَهَلْ وَجَدْتُم ماوَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ » قال : فقال عمر : ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ما أنتُمْ بأسْمَعَ لِمَا أقُولُ مِنْهُمْ » فها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر مؤكدا بالقسم أن الأحياء الموجودين معه فى الدنيا لايزيدون عن أولئك القتلى الكفار فى سماع كلامه صلى الله عليه وسلم . وإنى أحب أن يهوّن القارئ على نفسه ولا يستغرب عند سماع هذا فى حقّ الكفار ، فانه يعلم حق العلم أن البَدن ممن تموت أبدانهم بعد الانتقال من هذه الدار هو الذى يموت بانقطاع الصلة بينه وبين روحه الذى كان يدبره ويحركه . أما الأرواح فباقية بعد الموت كما كانت فى الدنيا قطعا ، والأرواح فى الحقيقة هى العاقلة المكلفة الفاهمة التى كانت تسمع فى الدنيا الأسئلة التى توجه إلى الإنسان وتردّ عليها ، وهى هى عين الإنسان ، وهذا البدن آلتها التى تسخرها فيا تريد من أعمال ، وإذا كانت الأرواح التى هذا قدرها باقية بعد الموت كما كانت فى الدنيا فأىّ غرابة فى سماعها ما يوجه إليها من كلام بعد أن تموت أبدانها ولو كانت أرواح كفار .

وأرواح المؤمنين تزيد صفاء وكمالا بعد موت أبدانها عما كانت قبل ذلك الموت ، فانها فى الدنيا كانت مقيدة بهذا البدن الظلمانى الكثيف تقيدا عظيما بتدبيرها وتصريفها لشئونه فى كل حال ، وبعد الموت انقطع ذلك التعلق العظيم وأصبحت مطلقة إطلاقا لايعلم قدره إلا الله عز وجل ، ولهذا ينبغى أن تعلم أنها تجول فى هذه العوالم باذن ربها ، فتأمر مناما بمصالح وتنهى عن مضار وتبشر بمحابّ وتنذر بمكاره وتأخذ وتعطى وتدعو الله تعالى ، وتعلم علوما ، وتخبر عن غيوب مستقبلة ، وهى إذا قالت شيئا كان حقا ما تقول ، فانها فى عالم لايعرف الكذب ، وكم حمد الله تعالى من أطاعها فيما تشير إليه ، وكم ندم من خالفها ، وكم وصل من خير لعباد الله تعالى الأحياء من طريقها ، وكم وصل من شر ، والفاعل فى الكل رب الجميع ، وهو المسخر لها فى كل حركاتها ، الآذن لها أن تقول ما تقول وتفعل ما تفعل .

كل هذا أقوله ، وبراهينه كما ترى قوة واتجاها ، وأنا أعلم أن بيننا فريقا تقع منهم هذه الحقائق موقعا غريبا وأليما ولا يكادون يصدقونها ، ولعلك تقول : وماذا يفعلون فى هذه الحجج اليقينية التى تسوقها ؟ فأقول لك : إنك يا أخى كأنك لم تكن فى الدنيا ، لتعلم أيها الفاضل أن الفريق الذى نشير إليه لاقيمة للحجة عنده إذا كانت من السنة ، كأن السنة نسخت فى هذا الزمان ، نعم لقد وصلوا فى الاستخفاف بالسنة النبوية التى لولاها ما كان لنا دين ، إلى حد لايكاد يصدقه المؤمن ، وماذا عسى أن تنتظر فى الاستخفاف بها بعد أن تسمع أحد هؤلاء يصرح فى غير خجل أن بنتا صغيرة خادما أصدق من رواة البخارى الذى يعده علماء الإسلام أصح كتاب فى السنة ، لاتفزع أيها الأخ واعلم أن هذا الفريق الذى حاله ما نذكر وصل أمره إلى أكثر مما نقول ، فقد طبع فى العام المنصرم عام (١٣٤٩ هـ) تفسير لواحد من هذا الفريق بتشجيع من إخوانه ومساعدة كبيرة ـ هذا التفسير لكلام الله ، وهو

ينكر كلام الله إنكارا صريحا بصرف كثير من عباراته الكريمة إلى معان لايدل عليها الوضع العربي الذي به نزل هذا الكتاب الحكيم ، وبذلك أنكر حقائق إنكارها كفر صريح ، وقامت له الأمة وقعدت ، وكان أول خطوة معه أن صودرت نسخه لئلا تصل إلى أيدي الناس ، ومنهم الجاهل الذي لايميز صوابا من خطأ ، وهذا المفسر الجديد لم يزد على أن أضاف إلى فريق الباطنية واحدا ، وأصبح بين الأمة كالمجذوم يفرّ منه كل من وقعت عينه عليه ، وسيرى عاقبة ذلك في يوم يشيب الولدان — ومع كون ذلك الفريق بتلك الدرجة التي نحكيها مع الحجج النبوية تراه إذا عثر على شبه حجة له على معنى يعتقده تجده يتشبث بها تشبثه بروحه ، مع أنها من السنة التي لاقيمة لها عنده ، ولكنها الأهواء تفعل أكثر من ذلك ، كما يتشبث بقوله صلى الله عليه وسلم « إذَا ماتَ الإنْسانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثَلاثٍ : صَدَقَةٍ جارِيَةٍ ، أوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ » يحتج هؤلاء الناس بهذا الحديث على أن الإنسان متى مات فلا عمل له أصلا ، وهو خطأ قبيح ، فان الحديث الكريم يتكلم عن الأعمال التكليفية التي تزداد بها الحسنات والسيئات ، فأفادنا أن العمل الذي هذا حاله ينقطع عن الميت بمجرد موته ، ومعقول هذا الانقطاع ، فان الحسنات والسيئات في دار العمل ، ودار العمل الدنيا ، والميت قد انتقل من الدنيا . غير أن الحديث استثنى الأعمال الصالحة التي يبقى نفعها في الدنيا للأحياء بعد موت العامل ، فأخبر أنها ما دامت منتفعا بها فالعامل في ازدياد من الثواب وإن كان في قبره .

وبما أن الكلام في الأعمال التي بها مزيد الثواب مثل صلى الله عليه وسلم بالأمثلة المذكورة ، وهذا معنى واضح لايتوقف فيه عاقل .

أما الأعمال التكوينية فالأمر فيها بالنسبة للأموات كما قررنا ، ولعلنا

لانبعد عن الواقع إذا قلنا إن من النادر أن نجد إنسانا ليس له واقعة أو وقائع منامية مع أناس ماتوا من زمن بعيد أو قريب حاورهم فيها وحاوروه ، وكان منهم له ما يسرّه أو لايسره من أقوال أو أفعال يحكيها بعد أن يقوم من منامه وتقع أو تكون واقعة كما قالوا . وإنا ننقل هنا مثالا لاشك فى صحته . فى البخارى مختصرا والطبرانى مطولا ، عن أنس قال « لما انكشف الناس يوم اليمامة قلت لثابت بن قيس : ألا ترى يا عم ـ ووجدته يتحنط ـ فقال : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، بئس ما عودتم أقرانكم ، اللهم إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء وما صنع هؤلاء ، ثم قاتل حتى قتل ، وكان عليه درع نفيسة فمر به رجل مسلم فأخذها ، فبينا رجل من المسلمين نائم أتاه ثابت فى منامه فقال : إنى أوصيك بوصية : إياك أن تقول هذا حلم فتضيعه ، إنى لما قتلت أخذ درعى فلان ومنزله فى أقصى الناس ، وعند خبائه فرس تستنّ ـ أى تذهب وتجىء عدوا فى نشاط ومرح ، ولا راكب عليها ـ وقد كفئ على الدرع برمة وفوقها رحل ، فأت خالدا فمره فليأخذها ، وليقل لأبى بكر إن علىّ من الدين كذا وكذا وفلان عتيق ، فاستيقظ الرجل فأتى خالدا فأخبره ، فبعث إلى الدرع فأتى بها ، وحدّث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيته » . هذا لفظ ابن حجر فى الإصابة فى ترجمة ثابت بن قيس . فهذا رجل ميت يغضب على تركته أن يأخذها غير وارثه فيأمر من يذهب إلى قائد الجيش يخبره بمكانها ليردها إلى ورثته ، ولما سمع هذا القائد ذلك ، بعث إلى الدرع فأتى بها ، ثم أمر هذا القائد أن يخبر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عليه من الدين ليؤدى عنه ليستريح من ناحيته ، وحتى لايندم رب الدين على ضياع ماله بموت المدين ، وأن يخبره بوصيته بعتق غلامه لينفذ هذه الوصية بما له من السلطة العامة ، وليكون هو قام بمكافأة ذلك الغلام

على طول خدمته له فى حياته ، فنفذ أبو بكر رضى الله عنه ذلك .
وانظر لما ذهب إلى الرائى كيف شدد عليه أن يبلغ مايوصيه به ، وأفهمه أن الأمر جاد لاهزل ، وحق لاباطل ليقتلع من نفسه التردد الذى يقع فى النفوس فى بعض ما ترى فى المنام . وانظر كيف يصف المكان الذى به الدرع على مبالغة آخذها فى إخفائها . وانظر كيف فطن هو وحده لذلك الآخذ مع أنه ميت ، ولم يفطن له الأحياء المحيطون به من كل مكان .

فمن بعد هذا ينكر أو يتردد أو تخطر له شبهة فى أن الميت بعد موته يعمل ويقول ؟ وهل عقيدة أن الميت لايقول بعد موته ولا يفعل إلا عقيدة من يئسوا من أصحاب القبور .

وإذا أحطت علما بهذا كله علمت أن الأمر عادىّ صرف فى مخاطبة الأنبياء والأولياء وجميع المؤمنين ، بل والكافرين بعد موتهم المخاطبة التى لاتقل عن مخاطبتهم وهم أحياء فى الدنيا ، فان الميت يسمع ويفهم ، فمن خاطبه خاطب سميعا فاهما .

وعلمت أن من يحكمون بالشرك على من يخاطب وليا أو نبيا بعد انتقاله من هذه الحياة بعدوا عن الحق بعد الحق عن الباطل ، وبرهنوا بذلك على أنهم لم يكلفوا خاطرهم بالنظر فى دين الله حتى وصلوا فى الجهل به إلى درجة أن تخفى عليهم تلك الحقيقة الواضحة .

هل للأنبياء والأولياء وجاهة عند ربنا ؟

شىء من وجاهة الأنبياء

ليعذرنى القارئ الفاضل فى هذه الترجمة ثم الاستدلال عليها ، فان ذلك وإن كان بديهيا عنده ، منكر عند قوم إلى حد لاحد له ، وإنا نكتب ما نكتب نرجو أن ينتفع أولئك القوم به وإن لم ينتفعوا ، وذلك

أكبر الظن بهم . فالدنيا مملوءة والحمد لله بمن ينتفع به من المؤمنين الصادقين .

قال ربنا عز وجل فى سيدنا موسى الكليم (وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً) وقال فى سيدنا عيسى (وَجِيهاً فِى الدُّنْيا والآخِرَةِ) هذا كلام ربنا وليس بعد كلام ربنا كلام ، لأنه الخالق العالم بما عليه خلقه ، فاذا ذكر حقيقة وردّها أحد كان ذلك ردة من ذلك الرادّ - ذلك لا نزاع فيه - وما ذكر من كلامه تعالى يقرر فى وضوح أن لربنا عبيدا لهم عنده وجاهة ، وأن سيدنا موسى وسيدنا عيسى صلى الله عليهما وعلى جميع الأنبياء وسلم ، من أولئك الوجهاء .

ومعنى هذه الوجاهة عنده تعالى لمن جعلها لهم : المنزلة الرفيعة التى بها يتولى شئونهم توليا خاصا ، ويعاملهم كما نعامل نحن الوجهاء عندنا فكما لا نردّ نحن طلب الوجهاء عندنا إجلالا لهم واحتراما لمنزلتهم الرفيعة عندنا ، كذلك هو تعالى لا يردّ طلب الوجيه عنده إلا لحكمة هو يعلمها ، وإن اختلف المقتضى للإجابة عندنا وعنده تعالى .

وإنا نحب كثيرا أن يسمح لنا القارئ الكريم لنقصّ عليه شيئا من آثار وجاهة الأنبياء صلى الله وسلم عليهم عنده تعالى ليزداد إيمانا بها على إيمانه فنقول :

مكث العبد الشكور سيدنا نوح رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الحق ليلا ونهارا ، سرّا وجهارا ، ويلاقى منهم فى سبيل تلك الدعوة ما يلاقى من أصناف الإيذاء ولم يثنه ذلك عن القيام بما كلف به . ولما يئس من هدايتهم قال ما حكى عنه ربنا (إنِّى مَغْلُوبٌ فانْتَصِرْ) ثلاث كلمات حرك بها لسانه هذا العبد الكريم . أتعرف أيها القارئ ما ذا كان أثرها ؟ لقد كان ما قال مولاه عز وجل (فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ .

وَفَجَّرْنا الأَرْضَ عُيُوناً فالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ، وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنا) هيج تعالى السماء لدعوة ذلك العبد الجليل ، فأفرغت ماءها ينهمر انهمارا ، وهيج الأرض فقذفت ماءها يتفجر تفجرا ؛ وبالضرورة كان الجو إذ ذاك فى منتهى العبوسة والغضب ، ولما التقى ماء السماء بماء الأرض كان منهما طوفان عظيم غمر كل الأرض ، وفى هذا الهول الذى تنخلع له القلوب فزعا أغرق تعالى كل من على وجه الأرض من الكفار الذين تغير منهم قلب سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام ، ودعا عليهم بتلك الكلمات ؛ ولعلك تقول : وماذا جرى لهذا الرسول ومن آمن معه فى ذلك الهول الذى يشيب الولدان ، وهل طار عليهم من رشاش ذلك الطوفان شىء أو أحست قلوبهم بذرة من ذلك الفزع المذهل ؟ فأقول لك: ما كان من ذلك شىء مع أنهم فى سفينة تجرى بهم فى موج كالجبال ، وكيف يكون ذلك والقدير الرحيم يقول فى تلك السفينة (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا) وهل يخشى شيئا من يسير محروسا بعينه تعالى التى لاتنام ، محوطا بحفظه الذى لا يمَسّ . فليقل لى القارئ وليفتنى فى مبلغ هذه الوجاهة التى تغضب ، فيغضب الله ، وتغضب السماوات ، وتغضب الأرض ، ويغضب الجو ؛ ولا يهدأ هذا الغضب حتى يكون ما تريد من تغير وجه البسيطة كلها ، وإهلاك كل من عليها من الكفار .

وكسر سيدنا إبراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم الأصنام التى كان يعبدها الوثنيون الذين كانوا يعاصرونه ، وأنت تعرف أن مس العقيدة بأى شىء مظنة انفجار براكين الغضب ، فكيف إذا طعن فيها ووصل الطعن إلى درجة أن مس الألوهية ، لابل تعدى ذلك إلى التعدى بالتكسير والتهشيم لنفس الآلهة التى تعبد ، و يعتقد فيها أنها تنفع وتضر ؛ لذلك لم يكن له عليه الصلاة والسلام جزاء عند أولئك الوثنيين

إلا قتله صلى الله عليه وسلم ، وليس هذا القتل مطلق قتل ، بل آلم القتل وأشده ، وهو الإحراق بالنار التى أججت ثم ألقى فيها .
وهل يدرى القارئ ماذا فعل به ربه ، وهو تعالى يعلم أنه ما أقدم على ما أقدم عليه إلا غَيْرة منه على مقامه الأسمى أن يشارك فى العبادة ؟ لقد كان أن قال عز وجل للنار ، وهو ربها (كُونِى بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ) إن اسم إبراهيم فى هذا المقام لاتشبع أذن العقل أبدا من سماع حلاوته ، وهل تدرى ماذا كان من النار؟ كان منها أن صدعت بما أراده منها ربها ، ولم تمس هذا الخليل بأدنى ضرر ، فماذا يرى القارئ فى تقدير هذه الوجاهة التى بلا سؤال بل مع رفض السؤال كما ورد ـ سلب لها رب السموات والأرض خاصة هذا العنصر المحرق ، وجعله عليها بردا وسلاما ، فكان صلى الله عليه وسلم فى وسط النار الملتهبة وهو يشعر بهذا البرد اللطيف ، ولا تظن أن هذا ـ على فخامته ـ كل ما كافأ ربنا به خليله ، لاتظن ذلك ، واعلم أنه ما حيى حى بعد هذا العبد الغيور على مولاه إلا وبه حيى لهذا اليوم وإلى أن تنقضى الدنيا ، فانه لم يبعث نبى بعده صلى الله عليه وسلم إلا وهو من ذريته ، ولم ينزل بعده كتاب من السماء إلا وعلى ولد من أولاده أنزل ، كما يقول تعالى (وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالكِتَابَ) إذن لم يؤمن إنسان بعد سيدنا إبراهيم إلا على يد ولد من أولاده . ومعروف أن ربنا عز وجل جعل الشرائع أرواحا للخلق كما يقول عز وجل (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا) فمن آمن بهذه الشرائع حيى ، ومن لم يؤمن بها كان ميتا ، ولقد صرح تعالى بذلك فى قوله الكريم (أَوْ مَنْ كَانَ مَيْتاً فأَحْيَيْنَاهُ) وقوله (وَمَا يَسْتَوِى الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ) وغير ذلك كثير فى كلام الله تعالى .

فكأن ربنا الشكور يقول لهذا الخليل العظيم : أنت قدّمت حياتك

فى سبيلنا وبخوت بها عن طيب خاطر ولم تلتفت لها ، واستهنت بالموت غيرة علينا وإجلالا لنا ، فكان جزاؤك عندنا أن حلنا نحن بينك وبين ذلك الموت مكافأة لك على هذا الإخلاص البالغ ، وخرقنا عادتنا فى ملكنا من أجلك ، فجعلنا الجسم المحرق بردا وسلاما عليك ، وليس ذلك فقط كل جزائك عندنا ، بل جعلنا كل من يحيا فى ملكنا فى حياتك وبعد مماتك إلى قيام الساعة إنما بك يحيا ، هذا جزاؤك عندنا فى الدنيا التى ليست بدار جزاء . وجاء هذا أثره عند ربنا عز وجل إنما يعلم قدره ربنا فقط . وأما نحن فلا يسعنا أمامه إلا طأطأة الرأس والسكوت التام .

ويئس سيدنا موسى رسول الله صلى الله عليه وسلم العبد الكليم الوجيه الذى اصطنعه ربنا لنفسه من هداية فرعون وقومه ، فأوحى إليه مولاه أن يخرج بمن آمن به من مصر ليلا ، وأخبره أن سيتبعه فرعون وجنوده لقضاء قضاه فيهم ، فخرج صلى الله عليه وسلم بمن اتبعه وصدّقه كما أمر . ولما علم بذلك فرعون جمع من قومه ما جمع ، وخرج وراءهم ، فلما دنا منهم ورأوه بجموعه قلقوا وقالوا لسيدنا موسى صلى الله عليه وسلم (إِنَّا لَمُدْرَكُونَ) يعنون أنا ميتون ولا بد بيد هذا الطاغية الجبار وجيوشه هذه الكثيرة القوية ، فطمأنهم صلى الله عليه وسلم بأعظم أنواع المطمئنات إذ قال لهم (كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) هكذا حكى ربنا عز وجل عنهم وعنه صلى الله عليه وسلم وعليهم ، يريد سيدنا موسى أن يقول لهم : إن ظننتم أن فرعون وقومه أقوياء يفتكون بنا ، فاعلموا العلم الذى لاشك معه أن معى خالق فرعون وقومه ، القادر على أن يزيل كل هذا الوجود سماواته وأرضه فى لحظة ، وإذا كان معنا هذا القادر العظيم ، فلا بد أن يكفينا عدوّنا ويرشدنا إلى ما به نجاتنا منه ، وإذن دعوا هذا الخوف واطمئنوا كل الاطمئنان .

وهل تعرف ما ذا كان بعد ذلك ؟ كان أن هداه ربه إلى نجاته ونجاة

قومه كما قال عليه الصلاة والسلام لهم ، فانه تعالى أمره أن يضرب بعصاه البحر ففعل كما أمر فانفلق البحر الماء السائل ، وصار شوارع يرونها بأعينهم ، وهو من كل ناحية من نواحي هذه الشوارع متماسك جامد شاهق متين لا كمتانة المباني التي يبنيها البشر ، بل كالجبل الشامخ العظيم الذي بناه القوى المتين ، وحينئذ فرحوا وأقبلوا على تلك الشوارع يسيرون فيها آمنين مطمئنين حتى انتهوا إلى الشاطيء الثاني ، ولما وصل فرعون إلى البحر ووجده بهذه الحالة اقتحمه هو وقومه ، فلما صاروا فيه انساب عليهم وانطبق على بعضه كما كان فأغرقهم أجمعين ، وسيدنا موسى وقومه ينظرون . وماذا عسى أن يقول القائلون في تقدير الوجاهة التي هذا قدر عمل الخالق على رضاها ؟ إن الألسنة هنا لتخرسها الهيبة ويعقلها هذا الجلال .

وهذا سيدنا داود الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم خليفة الله في أرضه الذي يقول فيه خالقه (نِعْمَ العَبْدُ) وصل من جاهه عنده سبحانه وتعالى أن جعله صلى الله عليه وسلم يعمل في الحديد ما لا تعمله النار الملتهبة والمطارق الثقيلة القوية . جعله يتناول ذلك الحديد بيده اللحم والعظم والعروق فيفصل منه — وهو الحديد — كما يشاء من الدروع وسواها بغاية اليسر والسهولة والسرعة كأنه في يده قماش في يدنا أو ألين . ولا تعجب أيها القارئ ، فان سيدنا داود هذا هو الذي سخر له ربه الطيور التي لا تعقل بل والجبال الجمادات ، فجعلها تفهم تسبيحه حينما يسبح ، فتأخذ هي في التسبيح كذلك مشاركة له عليه الصلاة والسلام ، ويفهم هو منها هذا التسبيح . إن الجاه الذي يعمل له ربنا كل هذا جاهٌ ليس له حد ، لقد أجزل ربنا النعمة على هؤلاء الناس ، فاني لا أجد عبارة تفي بشرح قدر اللذة التي كان يشعر بها سيدنا داود وهو يسمع الطيور والجبال تسبح بتسبيحه ، ولا يمكنني

أن أصف ما يقوم به من الفرح بنعمة ربه وهو بتلك الحال أو وهو يرى الحديد في يده ينفعل له كما يشاء عليه الصلاة والسلام .

أما سيدنا سليمان الرسول الكريم فعجيب والله جاهه عند ربه ، ثم عجيب ، كيف لا وربه لم يرض له أن يسير إلى مقاصده في الأرض التي جعلها تعالى مكانا لسير الخلق ، بل جعل تعالى طريقه إلى ما يريد الجو كما أبى تعالى أن يجعل مراكبه دواب يسير عليها ، بل جعل دابته الريح تسير به في الغدوة مسافات تستغرق شهرا كاملا بالسير المعتاد ، وكذلك تسير به في الروحة وهو بالخيار معها بين أن يجعلها رخاء هينة لينة كما تتساهل مع دابتك فتتركها تمشي الهوينا ، وبين أن يجعلها عاصفة شديدة كما تحمل دابتك على السير السريع . وليس هذا كل آثار جاهه عند ربه تعالى ، بل من تلك الآثار أن جعله تعالى حاكما على الجن مطاعا فيهم يحبس منهم من يحبس لتمرده وإفساده ، ويطلق من يطلق (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ) ومن تلكأ منهم وزاغ عن أمره أذاقه الله العذاب الأليم . بل من آثار ذلك الجاه أن جعل تعالى له الطير تحت أمره يسخره كما يشاء ووهبه فهم منطقه يحاوره ويتفاهم معه كما يتفاهم مع بني آدم . فقل لي بربك أيّ جاه هذا الجاه الذي جعل الله تعالى له الجن والإنس والطير مسخرين له يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه ؟ ومع ذلك يقول له تعالى (هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) أي هذا الملك العظيم وهذا العطاء المعدوم النظير لاحساب عليك فيه ، وإن أمسكته ولم تعط منه شيئا لأحد أنت مطلق التصرف فيه لاجبر عليك في إعطاء ولا ذمّ عليك في منع ، ومن أجل هذا كان ذلك ملكا لاينبغي لأحد من بعده عليه الصلاة والسلام .

أما سيدنا عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم ، فكان في جاهه عند ربه آية ، كما أن خلقه آية ، كان صلى الله عليه وسلم إذا لمس بيده الشريفة مريضا عوفي من مرضه مهما كان ذلك المرض ولو عمى أو

برصا . ولا تستكثر هذا عليه صلى الله عليه وسلم ، فانه كان ـ فوق هذا ـ إذا نادى ميتا أن يحيا حيي باذن الله عز وجل ، ولعل ذلك يقع عندك موقع الغرابة ، لاتستغرب واعلم أن مولاه مكنه ـ فوق هذا ـ من مدهش ، مكنه من أن يصور القطعة من الطين كهيئة الطير فينفخ فى تلك القطعة فتكون طيرا حقيقة باذن الله . وأظنك تسارع عند هذا إلى قولك : هذا مظهر من مظاهر الخلق والإبداع والاختراع ، فأقول لك إلى هذا الحد وصل جاه سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام عند ربه ، ولكن لايخفى على فطنتك أن الفاعل هو ربنا عز وجل ، وهذه المظاهر أسباب فقط لخلقه تعالى .

وأما سيد العالمين حضرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فليس فى خلق الله من يدانيه فى وجاهته عند ربه ، وكيف يدانى من يقول له تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ) ولفظ العالمين معلوم أنه يشمل كل ما عداه سبحانه وتعالى ؛ وإذا كان صلى الله عليه وسلم رحمة لكل الخلق فكيف يكون فيهم من يدانيه فى منزلته عند مولاه عز وجل . وماذا يقول ملوك البيان فى تقدير هذا الجاه العظيم ؟ وماذا عسى أن يصف البيان فيمن يخاطبه تعالى بقوله (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) مع أنهم الذين يحكى عنهم تعالى قولهم (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) فجاهٌ يحمى وجوده حتى الكفار الذين يستهزئون بالدين وبمن جاء بالدين جاهٌ تقف عنده الألباب والأقلام والألسنة حيرى لاتبدى ولا تعيد .

ويزيدك علما بمبلغ عظم هذا الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ومقدار جاهه عند مولاه تعالى غَيرته عز وجل عليه . الغيرة التى تحرّم تحريما قاطعا أن يتقدم أحد عليه صلى الله عليه وسلم فى شىء ، وتوجب على الكافة أن يكونوا تابعين له فى كل شيء لتكون كل حركة من

حركاتهم مذكرة لهم ما يجب له صلى الله عليه وسلم عليهم من التوقير والاحترام ، وما يجب أن يكونوا عليه هم من التبعية المطلقة له عليه الصلاة والسلام . الغيرة التي تجعل رفع الصوت فوق صوته قرينة الردة في إحباط جميع أعمال من يرفع صوته فوق صوته صلى الله عليه وسلم . الغيرة التي تجرد من العقل قوما نادوه وهو في إحدى حُجُراته صلى الله عليه وسلم ليخرج إليهم ، أفهمتهم هذه الغيرة الإلهية أن ذلك فيه تكليف لخاطره عليه الصلاة والسلام ، والذي يقتضيه العقل السليم أنهم كانوا ينتظرونه حتى يخرج هو إليهم من تلقاء نفسه . ومن أعطى هذه الحقائق حقها من النظر عرف حق المعرفة من هو عليه الصلاة والسلام . الغيرة التي حتمت على كل من يريد الكلام معه صلى الله عليه وسلم أن لا يتقدم إلى ذلك إلا بعد أن يقدّم بين يدى ذلك صدقة ، وإنى لأرى توجيه هذا بأي تعليل مقللا من شأنه ومحددا لعظمته ، ثم نسخ تعالى هذا تخفيفا ورحمة بالفقراء ، ولكن هذا النسخ لا يمكن أن ينسخ ما وقر في النفوس له صلى الله عليه وسلم من التوقير والتعظيم الذي أحدثه الحكم المنسوخ .

ولذا أنه صلى الله عليه وسلم بهذا القدر الكبير عند ربه استطاعت السيدة الصدّيقة زوجه الكريمة أمنا الجليلة السيدة عائشة رضى الله عنها أن تقول له « ما أرى ربك إلا يسارع في هواك » كما رواه البخاري ومسلم وغيرهما ؛ تريد رضى الله عنها بكلامها هذا أن ربه عز وجل لا يحوجه إلى مشقة سؤال يتجشمها ، ثم بعد السؤال تكون الإجابة بل هو تعالى يعلم ما يهواه ويحبه فيفعله له ولو من غير سؤال ، ولا يفعل له ذلك مطلق فعل بل بقيد الإسراع ، وهذا تقوله رضى الله عنها تحكى به ما تشاهد من عادة الله تعالى معه في أمياله ومحابّه .

وإنا نذكر هنا شيئا يفهم منه الناظر كيف يطيعه ربه ويسارع في هواه فليسمع « سأله صلى الله عليه وسلم أهْلُ مَكَّةَ أنْ يُرِيَهُمْ آيَةً فأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ القَمَرِ مَرَّتَيْنِ » أي فلقتين . رواه البخاري

ومسلم والترمذى وغيرهم ، وصرح بهذه الآية القرآن . فهى من المعجزات التى لا يقوى مسلم على أن يمترى فيها . ولعل هذا الوجود من بدئه لم ير آية مثلها فى الضخامة والعظم « وأراد يوما صلى الله عليه وسلم أنْ يَقْضِيَ حاجَةً واحْتاجَ إلى شَيْءٍ يسْتَتِرُ بِهِ ، فأخَذَ بغُصْنِ شَجَرَةٍ وَقَالَ لَهَا : انْقادِي عَلَيَّ بإذْنِ اللهِ ، ثمَّ ذَهَبَ إلى أُخْرَى وَأخَذَ بغُصْنِها وَقالَ لَهَا مِثْلَ ذلكَ ، فانْتَقَلَتا مِنْ مَكانِهِما إلى حَيْثُ شاءَ ، ثمَّ أمَرَهُما أنْ تَلْتَئِما فالتأمَتا ، وَقَضَى حاجَتَهُ مُسْتَتِراً بِهِما . ثمَّ تَرَكَهُما فَرَجَعَتا إلى مَكانِهِما » رواه مسلم . فأى جاه هذا الجاه الذى يأمر فلا يعصيه حتى الجماد .

وشكا الصحابة إليه يوما العطش ، وكانوا بالحديبية ؟ وليس فى الجيش إلا ركوة بين يديه صلى الله عليه وسلم ـ والركوة : زقّ صغير ـ بها بقية ماء ، فوضع صلى الله عليه وسلم يده الكريمة فى الركوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون ، فشربوا وتوضئوا وكانوا ألفا وخمسمائة ، ولو كانوا مائة ألف لكفتهم ، رواه البخارى ومسلم . فماذا يقول القارئ فى جاه لأجله يفور الماء من الأصابع التى بينها وبين الماء المباينة كلها فانها عظم ولحم ، وأين ذلك من الماء الذى لو نبع من الحجر الصلد لكان أقرب من نبعه من الأصابع ، فان الحجر من جنس الأرض التى بها ما بها من ينابيع الماء . بل إحياء الموتى أقرب من هذا ، فان الميت كان به حياة وقريب أن تنفخ فيه الحياة ، ولكن كيف يكون اللحم والعظم ينبوعا للماء ؟ إن ربنا ليفعل له صلى الله عليه وسلم ما لا يخطر على القلوب جلت قدرته .

ودعا لأم سيدنا أبى هريرة رضى الله عنه أن يهديها الله تعالى ، وكانت قالت ما قالت فيه صلى الله عليه وسلم من الذم ردّا على ابنها أبى هريرة لما عرض عليها الإسلام ، وكان أبو هريرة يبكى عليها

عنها . فلما دعا لها صلى الله عليه وسلم بالهداية رجع أبو هريرة رضى الله عنه فى الحال إلى البيت ، فسمع خضخضة الماء والباب مغلق ، فلما سمعت حركة قدميه قالت له : مكانك يا أبا هريرة ، فلما فرغت من الغسل ، فتحت الباب ثم قالت : يا أبا هريرة ! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى سرورا . رواه مسلم .

« وكانَ صلى الله عليه وسلم على المنبرِ يوما فسأله أعرابىٌّ أن يدعو الله تعالى أن يسقيهم ، وكانوا فى قحط ، فرَفعَ يديهِ ومَا بالسَّماءِ قطعةُ سحابٍ ، فما ردَّهُما إلاَّ وقد ثارَ السَّحابُ كأمثالِ الجبالِ ، ولم ينْزل صلى الله عليه وسلم عنِ المنبرِ حتَّى نَزلَ عليهِ المَطرُ وصارَ يتقاطَرُ على لحيتهِ الشَّريفة ، ولا زَالَ فى انهمار حتَّى الجمُعةِ التَّاليةِ ، فسئل صلى الله عليه وسلم أنْ يدعُوَ ربَّهُ أنْ يرفعَ هذا المَطرَ ، فرَفعَ صلى الله عليه وسلم يديْهِ وقال : اللَّهُمَّ حَوَالَيْنا ولا علَيْنا ، فانْقطعَ المَطرُ فى الحالِ وخرَجوا مِنَ المَسْجِدِ يَمْشُونَ فى الشَّمسِ » رواه البخارى . وكان يخطب صلى الله عليه وسلم أوَّلا إلى جذع نخلة ، فلما صنع له المنبر انتقل إليه ، فلما أحس الجذع بفراقه صلى الله عليه وسلم جعل يئنّ أنين الصبى والصحابة يسمعون ، ولولا أنه صلى الله عليه وسلم نزل عن المنبر وضمه كما تضم الوالدة ولدها الذى يبكى ما سكت عن أنينه حزنا وأسى وحسرة على بُعده عنه صلى الله عليه وسلم . رواه البخارى ، فماذا يقول القارئ فى جاه وعظمة وبركة تبكى خشبة على فراقها . وليتذكر فى هذا المقام قوم يحرمون تحريما قاطعا السفر إلى زيارته والقرب منه ويغضبون نهاية الغضب عند ذكره بشىء من التعظيم ، ليقل لهم القارئ إن الخشب الجماد يعظمه ويجلّه ويفرح بجواره وقربه منه لدرجة أنه يئنّ ويبكى إذا شعر ببعده عن جواره الكريم .

ومسح صلى الله عليه وسلم رجل عبد الله بن عتيك لما انكسرت ليلة قتل أبا رافع الذى نقض عهد النبى صلى الله عليه وسلم وصار يهجوه ، فانجبر الكسر فى الحال وكأنه ما كان يشكوها . رواه البخارى .

« وأكل أمامه صلى الله عليه وسلم رجل بشماله ، فأمره صلى الله عليه وسلم أن يأكل بيمينه ، فقال : لا أستطيع كبرا منه ، فقال له عليه الصلاة والسلام : لااستطعْتَ ، فجمدت يده ولم يستطع بعد ذلك رفعها إلى فيه » رواه مسلم .

« ووضعت له السيدة أم سليم رضى الله عنها حيسا — وهو تمر مخلوط بسمن وأقط — وأرسلته له مستقلة له ، فوضع صلى الله عليه وسلم يده الشريفة فى تلك الحيسة ودعا ، ثم صار يدعو الناس ليأكلوا فأكلوا وكانوا زهاء ثلثمائة ، ولا يدرى أكانت أكثر حين وضعت أم حين رفعت ؟ » رواه البخارى ومسلم .

« وطلب منه سيدنا عمر رضى الله عنه أن يدعو الله فيما بقى مع الناس من زاد ، وكان يسيرا ، وكانت أصابتهم مجاعة فى غزوة تبوك ، فدعا صلى الله عليه وسلم بالبركة فى ذلك الشىء اليسير ، ثم أمرهم أن يأخذوا فلم يبق أحد من الجيش إلا أكل وشبع ، ولم يبق معهم إناء حتى ملئ وبقى فضلة ، فقال حينئذ صلى الله عليه وسلم : أشْهَدُ أنْ لاإله إلاّ الله وأشْهَدُ أنى رَسولُ الله ، لايَلْقى اللهَ بِهِما عَبْدٌ غَيْرُ شاكٍّ فَيُحجَبَ عن الجنة » رواه مسلم .

وساخت أرجل فرس سيدنا سراقة رضى الله عنه إلى بطنها فى الأرض لما دعا عليه صلى الله عليه وسلم حينما تبعه هو وسيدنا أبا بكر رضى الله عنه وهما فى طريق الهجرة — وكان سيدنا سراقة لم يسلم بعد — فأخذ لهما على نفسه عهدا أن يردّ عنهما إن هما دعوا له ، فدعا له صلى الله عليه وسلم ، فنجت فرسه ، فرجع يرد عنهما وفاء بعهده . رواه البخارى ومسلم .

« ودعا صلى الله عليه وسلم أعرابيا إلى الإسلام، فقال له الأعرابي : ومن يشهد على ما تقول ؟ فقال له عليه الصلاة والسلام : هَذِهِ السَّلَمَةُ ـ شجرة ـ فدعاها صلى الله عليه وسلم فأقبلت تخدُّ الأرض خداً حتى قامت بين يديه ، فاستشهدها ثلاثا فشهدت ثلاثا ، ثم عادت إلى منبتها » رواه الدارمى

« ودعا صلى الله عليه وسلم عُرْجونَ نَخْلَةٍ فجَعَلَ يَنْزِلُ شَيْئاً فَشَيْئاً حَتَّى نَزَلَ عِنْدَهُ صلى الله عليه وسلم ، ثمَّ أمَرَهُ أنْ يَرْجِعَ إلى مَكانِهِ فرَجَعَ ، فعل ذلك صلى الله عليه وسلم ليبرهن لأعرابى على أنه نبيّ ، فلما رأى ذلك الأعرابى طاعة العرجون له صلى الله عليه وسلم أسلم » رواه الترمذى .

وقرأ صلى الله عليه وسلم قول إبراهيم (رَبِّ إنَّهُنَّ أضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ ـ إلى ـ رَحِيمٌ) وقول عيسى (إنْ تُعَذِّبْهُمْ فإنَّهُمْ عبادُكَ ، وإنْ تغفرْ لهُمْ فإنَّكَ أنْتَ العَزِيزُ الْحَكِيمُ) فرفع يديه وقال : اللَّهُمَّ أمَّتِي اللَّهُمَّ أمَّتِي ، وبكى ، فقال الله تعالى : يا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إلى محَمَّدٍ وَرَبُّكَ أعْلَمُ فاسألْهُ ما يُبْكِيكَ ، فأتاه جبريل وسأله ، فأخبره بما قال ، وهو أعلم ، فقال تعالى : ياجبريلُ اذْهَبْ إلى مُحَمَّدٍ فقُلْ لَهُ : إنَّا سَنُرْضِيكَ فى أُمَّتِكَ ولا نَسُوءُكَ » رواه مسلم .

ليقف هنا القارئ طويلا ويفكر فى هذا الجاه العظيم الذى يتلطف به ربُّه هذا التلطف البديع .

واختطف الذئب شاة ، فانتزعها منه الراعى ، فأقعى على ذَنَبه وقال له : ألا تتقى الله تنزع منى رزقا ساقه الله إلىّ ، فقال الراعى : يا عجبا ذئب يتكلم ؟ فقال الذئب : ألا أخبرك بأعجبَ من ذلك ؟ محمد صلى الله عليه وسلم بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق ، فذهب الراعى إلى

المدينة ، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، فأمر فجمعت الناس وأمر الراعي أن يخبرهم فأخبرهم . رواه أحمد والبزار .

وسئل ابن مسعود : من أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بالجن ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال : شجرة . رواه البخاري ومسلم .

وقال سيدنا على كرم الله وجهه ورضى عنه « كُنْتُ مع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بمكةَ ، فخرجْنا فى بعضِ نواحيها ، فما استقبلهُ شجرٌ ولا جبلٌ إلاَّ وهو يقول : السلامُ عليكَ يارسولَ اللهِ » . رواه الترمذى .

وقال صلى الله عليه وسلم « إنَّ بِمَكَّةَ حَجَرًا كانَ يُسَلِّمُ عَلَىَّ لَيالىَ بُعِثْتُ إنى لأعْرِفُهُ الآنَ » رواه مسلم .

أين العقل والفهم أيها الناس ؟ أشجار وجبال وحجارة تسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآدميون يقفون فى وجه كل من يريد الاتصال به صلى الله عليه وسلم بأى حال ، هذا شيء غريب وعجيب .

وقال صلى الله عليه وسلم « لا تَمَسُّ النَّارُ مُسْلِماً رآنى أوْ رأى مَنْ رآنى » قال طلحة : فقد رأيت جابرا ، وقال موسى قد رأيت طلحة ، قال يحيى وقال لى موسى وقد رأيتنى ونحن نرجو الله » رواه الترمذى . أرجو أن لايستكثر القارئ هذا عليه صلى الله عليه وسلم وهو رحمة الله تعالى للعالمين ، وقد سبق ما رويناه عن مسلم أن الله تعالى يقول له « إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك » وليتأمل كثيرا فى قوله تعالى « فى أمتك » إن معنى هذا الإرضاء كبير ثم كبير . ولو فهم الإنسان هذه العبارة كما هى عليه لصرح بأن هذه الأمة لايعذب منها أحد متى كان مسلما ، فان ذلك هو الذى يرضيه صلى الله عليه وسلم ، ويسوءه من غير شك تعذيب واحد منها ، هذا نقوله ولا نستبعده أبدا على ربنا ، وهو الذى يعد سيد خلقه صلى الله عليه وسلم فى كتابه ـ فوق ماتقدم ـ فيقول له (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) والمبشرات الشاملة لأمة الإجابة كلها كثيرة فى السنة وكثيرة .

« وجاءه حرملة بن زيد فقال : يا رسول الله الإيمان ههنا ، وأشار إلى لسانه ، والنفاق ههنا وأشار إلى صدره ، ولا نذكر الله إلا قليلا ، فسكت عنه صلى الله عليه وسلم ، فردد ذلك حرملة ، فأخذ صلى الله عليه وسلم بطرف لسان حرملة فقال : اللَّهُمَّ اجْعَلْ لَهُ لِسَاناً صَادِقاً وَقَلْباً شَاكِراً ، وَارْزُقْهُ حُبِّي وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّنِي ، وَصَيِّرْ أَمْرَهُ إِلَى الخَيْرِ ، فقال حرملة : يا رسول الله إن لى إخوانا منافقين كنت فيهم رأسا ، ألا أدلك عليهم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : مَنْ جَاءَنَا كَمَا جِئْتَنَا اسْتَغْفَرْنَا لَهُ كَمَا اسْتَغْفَرْنَا لَكَ ، وَمَنْ أَصَرَّ عَلَى دِينِهِ فَاللهُ أَوْلَى بِهِ ، وَلَا تَخْرِقْ عَلَى أَحَدٍ سِتْراً » رواه الطبرانى فى الكبير . وإنما دعا له صلى الله عليه وسلم أن يرزقه الله حبه ، لأن حبه هو الإيمان بعينه ، كما أن بغضه هو الكفر بذاته . وليس حبه صلى الله عليه وسلم أمرا يحكى باللسان فحسب بل القلب قبل اللسان ، ومتى استقر حبه صلى الله عليه وسلم فى قلب رأيت آثاره فى الحال ، من تعظيم يناسب قدره الأفخم صلى الله عليه وسلم ، ومن ولوع بالصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم ، ومن حرص شديد على اتباعه الاتباع المطلق فى كل حركاته وسكناته صلى الله عليه وسلم ؛ ومن شوق يتأجج فى الفؤاد يطلب طلبا لاهوادة معه ولا سكون أن يسعى إليه ويتشرف بالمثول بين يديه ، وما إلى ذلك من آثار الحب الصحيح . أما من يقول بلسانه أنا أحبه صلى الله عليه وسلم ثم لايجد من آثار ذلك الحب شيئا فهو محب باللسان لابالقلب . وأرجو أن تسمع ما يقوله محب امرأة :

وكنت إذا ما جئت ليلى أزورها أرى الأرض تطوى لى ويدنو بعيدها

وانظر إلى أى حد يبدى المحب من الطاعة لحبيبه إذ يقول :

ولو أمرونى أن أمر على لظى لقلت نعيا فى هواهم وجنتى

أين هذا من محب يكره زيارة محبوبه وينهى أشد النهى غيره عنها ؛ ولو سمع امرأ يذكر هذا المحبوب بشئ من التعظيم يتمعض ويعبس ويوجه إليه من الملام ما تأبى حكايته الأقلام . ليفتنى القارئ الكريم أشحب هذا ؟ أما أنا فتقع لدى هذه المحبة موقع الغرابة إن لم أقل إنها محبة كاذبة ثم كاذبة .

ولعل القارئ يفهم من هذا النزر اليسير الذى حكيناه هنا عنه صلى الله عليه وسلم ، إلى أىّ درجة بلغ قدره صلى الله عليه وسلم ووجاهته عند ربه ، وإلى أى حدّ بلغت مسارعته تعالى وطاعته لهواه صلى الله عليه وسلم ، عرف هذا حق المعرفة أصحابه رضى الله عنهم ، وكانوا عربا أوتوا ما أوتوا من نفوذ البصيرة ومعرفة حقائق الأشياء على ما هى عليه بفطرهم السليمة واستعداداتهم العالية ، وزاد هذا بما منحوه من نور الاسلام ومجاورتهم له عليه الصلاة والسلام ؛ لذلك كانوا يعظمونه ويجلونه إلى درجة يمثلها لك ويقربها إلى ذهنك قول بعض أعدائهم يصفهم معه صلى الله عليه وسلم «إذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون النظر إليه تعظيما له ؛ ولذلك لما رجع من عندهم قال لقومه : والله لقد وفدت على الملوك كسرى وقيصر والنجاشى ، والله إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا الخ » . رواه البخارى .

ومن آثار بلوغهم النهاية فى تعظيمه صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا لو ظفر أحدهم بشئ من آثاره كقطعة من ثوبه أو قليل من شعره صلى الله عليه وسلم ، لاحتقر الدنيا بأسرها بجانب ما ظفر به . كان هو صلى الله عليه وسلم يرى بعينه ذلك الإجلال البالغ منهم ولاينكر عليهم شيئا منه ، إشارة منه صلى الله عليه وسلم إلى أنهم فى كل ذلك ما تجاوزوا المطلوب منهم نحوه عليه الصلاة والسلام .

« ولقد رأى صلى الله عليه وسلم أم سليم تجمع عرقه فى آنية معها وكان نائما فاستيقظ وقال : ما تصنعين يا أمّ سُلَيم ؟ فقالت : هذا عرقك نجعله فى طيبنا وهو أطيب الطيب » وفى رواية أنها قالت « يارسول الله نرجو بركته لصبياننا ، فقال لها عليه الصلاة والسلام مقرّا ومشجعا ومادحا : أصبْتِ » رواه الشيخان والنسائى .

ولقد كانوا والله معذورين رضى الله عنهم فيما يفعلون معه صلى الله عليه وسلم من أنواع التعظيم والإجلال ، وكيف لا يعذرهم العاقل وهم يرون خالقه رب السماوات والأرض معه كما أشرنا سابقا إلى بعضه ، عرفوا - وما أذكاهم - أنه حبيب ربهم إلى تلك الدرجة التى ليس فوقها درجة ، فكانوا كما وصفنا معه عليه الصلاة والسلام ليبرهنوا لربهم عز وجل أنهم أحبوا حبيبه ذلك الحب الخالص من كل شائبة من شوائب التصنع ، ومتى عدوا من رجال هذه الطبقة أحبهم سبحانه وتعالى ، لأن محب المحبوب محبوب بلا نزاع ، وهم أعلم بدرجة من يحبه الله وبمقدار ما يصل إليه من جزيل الاحسان ممن كل إحسان من فيض إحسانه ، ولقد وصلوا رضى الله عنهم إلى حيث كانوا يقصدون ، فانهم خير أمة أخرجت للناس ، لم ير هذا الوجود من أوله لمنتهاه أمة مثلهم فى المنزلة عند ربنا سبحانه وتعالى ، رضى الله عنهم ورضى عنا بحبهم ، فلقد كانوا المثل الأعلى فى حبه صلى الله عليه وسلم ، الحب الذى معه برهانه ، وهل هناك برهان فوق ما تقدم لك بعضه ؟ وأضف إلى ذلك أنهم كانوا رضى الله عنهم يبذلون أرواحهم وأموالهم فى طاعته ، ولو عرض على أحدهم أن يقتل فى أى واد بأى نوع من أنواع القتل أو أن يشاك هو صلى الله عليه وسلم بشوكة على سريره فى بيته لأبى كل الإباء أن يشاك صلى الله عليه وسلم بتلك الشوكة ، وسارع هو بكل ما فيه من قوة إلى حيث يقتل ليباعد بينه صلى الله عليه وسلم وبين تلك الشوكة ، وما عن خيال أقول ، بل عنهم أقول : وكان أحدهم

فى اقتناع تام أنه إن قتل فهو فرد من أفراد الناس لا أثر فى الوجود بموته أما إن مات هو صلى الله عليه وسلم ، فهو رسول الله الذى موت الأمة بأسرها أخف من موته ، فانه لولاه ما كانت الأمة ، فلو ذهبت الأمة كلها وبقى هو صلى الله عليه وسلم لكان من القريب جداً أن تهتدى به أمة أخرى تحل محل التى ذهبت ، وربما كانت أجل وأعظم ، لكن لو انتقل هو إلى الرفيق الأعلى لاينتظر أن يحل محله رسول آخر ، لذلك كانوا رضى الله عنهم فى ميادين القتال لايفكرون فى أنفسهم ماتوا أم بقوا ، ولكنهم فى وجل لايمانه ووجل عليه صلى الله عليه وسلم لأنه رسول الله .

واسمع مثلا من ذلك « لما كان يوم أحد حاص أهل المدينة حيصة وقالوا قتل محمد حتى كثرت الصوارخ ، فخرجت امرأة من الأنصار فاستقبلت بأبيها وابنها وزوجها وأخيها ، فقالوا هذا أبوك أخوك زوجك ابنك ، تقول ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ يقولون أمامك ، حتى وقفت عليه ، فأخذت بناحية ثوبه ثم قالت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله لا أبالى إذا سلمت من عطب » . رواه الطبرانى فى الأوسط . هذه امرأة فما بال الرجال ، وما بال عظماء الرجال ، وكلهم رضى الله عنهم عظماء .

ومن راجع حالهم رضى الله عنهم يوم انتقل صلى الله عليه وسلم إلى ما أعد له من خير لايعلم قدره إلا ربه ، عرف ما نقول من حبهم له الحب الذى ما سمع الوجود مثله ، فلقد ملك الذهول بعضهم إلى حد أن أخرس ألسنتهم ، وبعضهم وصلت به الصدمة إلى درجة أن خارت قواه ، فهوى إلى الأرض لايستطيع الحركة ، وبعضهم استولى عليه الحزن لدرجة أن أذهب عقله وأفقده رشده ، وكان ذلك منهم وهم الكماة الأبطال فخر الدنيا فى شجاعتهم وجلدهم ، وقوم هذا وصفهم أنت تقدر مبلغ الحادث الذى يصل بهم فى الهزيمة إلى الحد الذى نذكر

لك ، وما كثير والله ذلك منهم لنقد بركة الوجود ، وشمس الهداية ، وينبوع سعادة الدنيا والآخرة . اللهم صل وسلم وبارك عليه عدد وكيفما صلى وسلم وبورك ويصلى ويسلم ويبارك عليه .

نعم ، كان صلى الله عليه وسلم كما نقول وفوق ما نقول في العظمة التي لاتدانيها عظمة مخلوق ، بل ولا يتصور مبلغها عند ربها أحد ، ومن أجل هذا كانت أمته أجلّ الأمم كما وكيفا . أما في الكم فحسبك أنها وحدها الثلثان من أهل الجنة ، وجميع الأمم ثلث واحد . وأما في الكيف فهي خير أمة أخرجت للناس ، أخبر بالأول نبيها ، وأخبر بالثاني ربها . وبهذا تتناسب عظمة الأمة مع عظمة رسولها صلى الله عليه وسلم .

ومما تنفر منه الطباع وتكذبه البديهة ويلعنه الإنصاف لعنا اعتقاد أن كل هذه الأمة حتى علماءها وقادتها مشركة لاتستحق إلا محوها من الوجود ، مع أن رسولها بالقدر الذى عرفت ، وتقديره لها مارويناه لك ، وحكم خالقها وبارئها عليها ما سمعت . فانا إذا ماشينا ذلك الرأى ، وقلنا ليس في الأمة مؤمن بحق إلا شرذمة ظهرت في آخر الزمان ليست هنالك في علم ولا في عمل ، نكون قد وقفنا في وجه كلام ربنا وكلام رسولنا صلى الله عليه وسلم ، ودفعنا في صدورهما دفعا ، وشهدنا على أنفسنا بنقيض ما شهد لنا به ربنا ونبيه ، ولا أظن أن الدنيا تحمل عاقلا يرضى هذا ويتقبله . إنى أحب أن يعرف القارئ هذا المقام حق المعرفة فانه في حاجة شديدة إليه في كل زمان ، وخصوصا في هذا الزمان الذى ابتلى بكثير من الناس يخفضون من قدره صلى الله عليه وسلم ، ويزعمون أن ذلك هو التوحيد ، ووالله ماذلك توحيدا ولا يقرب من التوحيد ، وإنه ليغضب التوحيد وأهل التوحيد ، ويغضب قبل الكل رب التوحيد ، وإنى لفى عجب عجاب من رجل يستغرب إكراما نسب إليه صلى الله عليه وسلم أو نسب إلى واحد من إخوانه الأنبياء صلى الله عليهم وسلم ،

فان استغرابه هذا إما أن يرجع لقدرته تعالى على ما يستغرب ، وإما إلى استحقاقهم هم الشيء الذى يستغربه . وإما إلى حصول ذلك الشيء ووقوعه فى الخارج بالفعل ، فان اختار الأول فقد برهن على أنه لايعرف الله ولا مبلغ قدرته ؛ فانه لو عرف ذلك ما استبعد عليه شيئا أراده ، ولو إزالة كل هذا الوجود فى لمحة ، وإن اختار الثانى فقد أقام الدليل واضحا على أنه لايعرف من هم الأنبياء ؛ ولو عرف أنهم الطبقة العليا من حزبه تعالى ، وصفوة الصفوة من أحبابه ، ما استعظم عليهم كرامة يكرمهم بها ربهم . ليعلم المستغرب أن هؤلاء الأنبياء هم الذين نسوا أنفسهم وفنيت إرادتهم فى إرادة مولاهم تعالى ، ولذلك ما كانت تزعجهم المزعجات ، ولا تنهنهم المؤلمات عن القيام بما كلفوا به منه تعالى ، بل كانوا مهما عصفت حولهم عواصف البلايا والمحن لاتراهم إلا كالجبال الرواسى التى تهزأ بكل قاصفة ، أو هى لاتشعر بما يجرى حولها من زوابع ، ولو لم يكونوا كما نقول ما استطاعوا أن يقفوا يوما واحدا فى مهب عواصف الأهواء المتباينة ، ولا أمكنهم أن يتحملوا يوما واحدا ما يصيبهم من الأذى أنواع الذى يصوب إليهم من صوب سفهاء أممهم ، وهو كثير ثم كثير . وإذقدرأينا أحدهم يمكث بين قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يوالى الدعوة إلى توحيد ربه غير ملتفت لما يناله ممن يدعوهم ، وهو مع تواليه كثير وأليم ، دل ذلك قطعا على أنهم لا إرادة لهم مع إرادة مولاهم ، وقوم هذا قدرهم ليس من العقل ولا من الإنصاف أن يستعظم عليهم منحة يمنحونها مهما عظمت . وإن اختار الثالث كان كمن يسلم المقدمات ولا يسلم النتيجة ، فانه إذا سلم أن الله تعالى قادر على تلك المنح ، وسلم أنهم يستحقونها كان لا وجه له فى وقوفه أمام وقوعها ولو كان لادين له ، إلا إذا كان لايعتقد فى ربنا تعالى الحكمة التى تعطى لكل ذى حق ما يستحقه . أما من يعتقد أنه حكيم ، فلا يمكن أبدا أن يتردد فى وقوع

هاتيك الكرامات . أما من يعتقد فوق حكمته أنه كريم وشكور يكافئ على القليل بالكثير ، فهذا لا يستبعد شيئا مهما جل على كرمه تعالى وشكره . وكيف يستبعد عليه شيئا وهو الغنى ، الذى لو سأله أهل السماوات والأرض كل ما خطر على باله من مطالب مهما بالغ فيها لأعطى الجميع ما يسألون دون أن ينقص من خزائنه شيء ، المختار الذى لايجبر على عطاء ولا يرغم على منع ، القدير الذى إذا أراد إعطاء أىِّ شيء كان من المحال أن يقهره قاهر على منعه ، هذا نقوله لمن يعرفه تعالى ولكنه لايؤمن بالأديان .

أما ذووالدين الذين يؤمنون بكتب الله تعالى وأخبار الأنبياء ، فان هذا الاستغراب لايخطر على بالهم ، لأن تلك المنح نطقت بها الكتب الإلهية ، ونطق بها الأنبياء ونقل ذلك عنهم نقلا لاشك فيه ، فلم يبق بعد ذلك كله إلا التصديق الخالص الذى لايشوبه أدنى ريب ، ومن ارتاب فى حصولها من المؤمنين كان عده منهم ظلما على المؤمنين . وخلاصة القول أن المؤمنين قديما وحديثا أينما كانوا ومتى وجدوا لايتردد واحد منهم فى أن للأنبياء عند ربهم جاها عظيما ، له آثاره الجليلة فى حياتهم الدنيوية وبعد انتقالهم إلى الرفيق الأعلى ، بل ولا يتردد واحد منهم فى أن لأتباعهم أهل الاستقامة جاها عنده تعالى له آثاره فى حياتهم وبعد مماتهم ، دل على ذلك كتاب ربنا وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فالمرتاب فيه واقف فى وجه كلام الله تعالى وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإنى لاأكذب القارئ الحديث ، أنا أشم من تردد من يتردد فى ذلك رائحة الاستخفاف بخالق السماوات والأرض ، فان العقول متفقة على أن الآثار تدل على من صدرت عنه حقارة وعظما ، فإن حقرت حقر من صدرت عنه ، وإن عظمت كان عظيما . ومن هذا ترى الصوفية يقولون : عنوان الرجل أصحابه : يعنون أنهم إن صلحوا كان صالحا ، وعلى قدر صلاحهم يكون صلاحه ،

والعكس بالعكس . وترى العلماء المشتغلين بتعليم العلم يستدلون بنجابة الطلبة وبلادتهم على نبوغ المعلمين وضعفهم . وترى تفاوتا هائلا جدا فى إجلال الناس لأرباب الصنائع ، فان أثر كل صانع دالّ على قدر إحسانه وبراعته فى صنعته ، وعلى قدر هذا الإحسان وتلك البراعة يجلّ الناس الصانع ويدعونه إلى أعمالهم . وإذا كان الأمر هكذا فانى أقول : إن أجل خلق الله تعالى على الإطلاق هذا النوع الإنسانى ، فاذا لم يكن فى هذا النوع عظيم ذو مكانة رفيعة وجاه كريم ، وكانوا كلهم لاقيمة لهم ، ولا يستحقون إجلالا ولا تعظيما ، دل ذلك من غير شك على أن الخالق ليس بعظيم — تنزه ربنا وتقدس — وكيف يكون عظيما من أعظم آثاره لا قيمة له ولا يستحق إجلالا ولا تعظيما ، وهو كما ترى شناعة وكفرا .

إذن نستطيع أن نستنتج من هذا أن الاستخفاف بمن صرح ربنا أنه أنعم عليهم وهم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون ، استخفاف به عز وجل ، فانه تعالى أخبر فى كتابه أنه أنعم على هؤلاء دون سواهم وفى ذلك السوى من أنعم عليه بالدنيا بأسرها كان يملك كل سهولها وجبالها وبحارها ورجالها ونسائها وحيواناتها وبلادها وذهبها وفضتها ، ومع ذلك لم يعدّ مثله ممن أنعم عليهم ، وذلك يدل بلا نزاع أن إنعامه على الواحد ممن أنعم عليهم فوق إنعامه بالدنيا بأسرها ، بل يمكنك أن تقول إن ركعتين يركعهما الواحد ممن أنعم الله عليهم خير من الدنيا وما فيها ، فانظر أنت الباقى كيف يكون قدره وهو لايعلمه إلا هو تعالى.

وإذا كان إنعامه تعالى على أحدهم بهذا العظم ، فالاستخفاف بهم استخفاف بمن أنعم عليهم ، واستخفاف بنعمه التى منحها لهم ، وهذا كفر لايختلف فيه مسلم . ولو لم يكن المستخف بهم هذا حاله لكان له شأن آخر مع أولئك المنعم عليهم ، فكان يقول إن هؤلاء موضع هبات ربنا وهداياه . والهدايا على مقدار مهديها ، وربنا تعالى لانهاية لفضله

وإحسانه وكرمه وغناه ؛ فاذن صفاته وأنواع فضله على من أنعم عليهم لا يعلم مبلغها سواه ، إذن هؤلاء المنعم عليهم من العظم بالدرجة التى لاتعرف لأمثالى ، وإنما يعلمها مانحها فقط ، وبهذا ينظر إليهم بعين كلها إجلال وتوقير واحترام ، ومع ذلك يجزم كل ّ الجزم أنه ما رعى حرمتهم حق الرعاية ؛ لأن الكريم الغنى اختارهم من كافة الخلق واصطفاهم وجعلهم خاصته وأغدق عليهم من أنواع فضله وإحسانه ما هو له أهل ، وعظمهم هو وأجلهم إجلالا وصل إلى درجة أنه اعتبر إكرامهم إكراما له ، وإهانتهم إهانة له ، وطاعتهم طاعة له ، ومعصيتهم معصية له ، وفى حكمه العادل يكفر ويستحق النار الأبدية يعانى فيها أشد العذاب من أهان رسولا له واحدا بكلمة واحدة مرة واحدة فى حياته كلها ولم يتب منها ، وصمم على أنه يستحقها ومات على ذلك ؛ بل ليقل لى هذا المتردد فى جاه وعظمة أحباب ربنا عنده ماذا يفعل إذا كان بيده من المنافع الدنيوية شىء مكنه منه ربه ، وله أحباب أعزاء أجلاء ، لا أظن أنه يتردد فى بذل ما يستطيعه من ذلك ثم إن كان فيه من كرم الطباع شىء ، وذلك معدود بين الناس على اختلاف مشاربهم من مكارم الأخلاق .

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا   من كان يألفهم فى الموطن الخشن

ومن النقائص المتفق على قبحها أن يكون الإنسان من السعة وبسطة العيش كما ذكرنا ثم يبخل على ذوى قرباه وأحبابه ، فيكون هو غارقا فى أصناف النعم وهم بين سمعه وبصره يتضورون جوعا ؛ إن الناس يعدون مَن ذلك حاله فاقد المروءة لئيما شحيحا لاخير فيه ، ولعل ذلك لايرضى به أحد لنفسه ؛ وإذا كنا لانرضاه لأنفسنا ، على نقصنا وفقرنا وشحنا الطبيعى ، فكيف نرضاه لمولانا الغنى الذى كل غنى من أثر غناه ، الكريم الذى كل كرم من فيض كرمه ، الذى كل العوالم حتى الكافرون به بما فيهم المنكرون لوجوده ، يتقلبون فى بحبوحة كرمه

ويرتعون فى موائد نداه ، ويستظلون بظله الدائم الوارف ، إلا من شاء له غير ذلك ممن لايستحقه من عباده فى آخرته ، أفيكون بهذا الغنى وهذا الكرم وهذا الجود ، وبهذه القدرة الباهرة ، وإذا قيل لنا إنه أكرم بعض أحبابه بكذا من المنح الجليلة التى ليس بمعتاد أن يراها غيرهم ، يقع ذلك موقع الإنكار من أنفسنا ، ونحاول بكل ما نستطيع من قوة أن ندفع ذلك القيل ، ليخبرنى ذلك المنكر إذا لم يكرم هذا القادر الكريم فمن يكرم ؟ وإذا لم يكن جزيلا كرمه فكرم من يكون جزيلا ؟ .

شىء من آثار وجاهة الأولياء عند ربنا عز وجل

امتلأت الدنيا اليوم بمنكرى كرامات الأولياء ، بل وبمن يهزءون بمن يعتقد كرامات الأولياء ، ويعدون هذا المعتقد من بقايا القرون الوسطى ، ويرون أنا لانزال فى تأخر فى ديننا ودنيانا ما دام الوجود يحمل هذا الطراز من الناس ، الأمر هكذا ؛ ولو أنك التفت لفتة بسيطة لوجدت أقواما آخرين عندهم الإيمان بكرامات الأولياء من أوليات ما ينطوون عليه من العقائد لايتوهمون أن الدنيا فيها إنسان واحد يتردد فى وقوع تلك الكرامات وكثرتها الكثرة التى صيرتها من الأمور المألوفة بين صالحى عباد الله تعالى لأنهم يشاهدونها كل يوم ممن يصحبونهم من الأخيار ، ومن يستطيع أن ينكر شيئا يراه كل يوم بعينه ؟ .

أما أولئك المنكرون فقد برهنوا بانكارهم هذا على أمرين :

الأمر الأول : أنهم لم يروا ذلك من أنفسهم ولا ممن يحبونهم ويصحبونهم من الناس . فقاسوا كلّ الناس على أنفسهم كفاقد حاسة البصر ينكر على كل من يدّعى أنه يشاهد نورا ، لأنه هو لايشاهد نورا .

والأمر الثانى : أنهم لم يطلعوا على كتاب ربنا وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم . ولو اطلعوا عليهما لرأوا كثيرا ثم كثيرا من الكرامات يحكى ربنا أنه أكرم بها أصحابه ، وإنى لاأرى بأسا من ذكر بعض ذلك هنا فأقول :

حسب القارئ برهانا على أثر وجاهة الأولياء عنده تعالى قصة أهل الكهف التى قصها علينا القرآن الكريم ، فان تلك القصة تضمنت أن أولئك الفتية ناموا ثلثمائة عام وتسعة أعوام ، دون أن يتناولوا فيها طعاما ولا شرابا ، وهى مدة لم تجر العادة بأن ينامها أو ينام القريب من القريب منها أحد ، كما أن العادة لم تجر بأن يصبر عن الطعام والشراب أحد فى مثلها أو فيما يدانى ما يدانيها ، وتضمنت أنه تعالى تولى تقليبهم ذات اليمين وذات الشمال بدون أى سبب ، ليكون نومهم معتادا لاتتألم منه جنوبهم كل تلك الرقدة الطويلة ، وهى عناية أفخم مما لو تركهم على جنب واحد وسلب عنه الألم . وتضمنت أنه تعالى أنامهم بحالة تجعل الناظر إليهم يحسبهم أيقاظا وهم رقود ، وذلك من أسباب بعد السوء وأهله عنهم ، فان اليقظ دائما مهيب ، بخلاف النائم الذى يستطيع أن يكيد له أضعف الناس وهو لايشعر . وتضمنت أنه تعالى ألقى عليهم من الهيبة ما يكفى لأن يملأ من يطلع عليهم رعبا ، ويحمله على أن يولى منهم فرارا ، وهو مبالغة فى المحافظة عليهم من أرباب الشر من الناس . وتضمنت أنه تعالى جعل الشمس إذا طلعت وإذا غربت لا تصيب المكان الذى هم به حفظا لهم من الشمس ومن حرارتها أن تؤذيهم ، منعها تعالى من إصابة الفجوة التى هم بها من الكهف ، مع أنه لاحاجب يحجبها عن تلك الفجوة إلا محض القدرة الإلهية ، ولذلك قال تعالى فى هذه المنحة (ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ) نعم إنها من آيات الله الكبرى الدالة على أن قدرته تعالى لاتقف عند حد ، نعم كان قادرا ربنا

أن يعصمهم من حرارتها مع تسلطها عليهم ، أو يسلبها الحرارة بالنسبة لهم ، ولكن ما فعله تعالى أضخم وأفخم . ولماذا فعل ربنا تلك الخوارق الباهرة من أجل تلك الفتية ؟ لاجواب على ذلك إلا أن وجاهتهم عنده ومكانتهم السامية التي يعلمها هو ، هي التي بها فعل بهم مافعل ، مما أبنأ أن قصتهم العجيبة تضمنته .

ومما يدل دلالة قاطعة على جاه أولياء ربنا عنده ما فعله مع السيدة الجليلة الكاملة سيدتنا مريم بنت عمران رضي الله تعالى عنها ، فانه تعالى قال عنها في كتابه (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ؟ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) فان سيدنا زكريا لايقول لها (أنى لك هذا ؟) وهو يرى أن ما عندها من الرزق وصل إليها من طريق معتاد . وهي لاتقول له في الجواب (هُو مِن عندِ اللهِ) وهو من المعتاد من الأرزاق ، فلم يبق إلا أنه كان يجيئها من طريق غير مألوف ، وذلك هو الكرامة ، ونداء الملائكة لها غير مألوف ، ورؤيتها لسيدنا جبريل ليست بمألوفة ، وحملها سيدنا عيسى بلا مس بشر غير مألوف . وكلامه صلى الله عليه وسلم وهو في المهد من أجل براءتها ليس بمألوف . وكله حكاه القرآن فلا شك فيه . وهل يكرمها ربها بكل تلك الكرامات العظيمة إلا لما لها عنده تعالى من الوجاهة والمنزلة السامية ، إن ذلك من البديهيات التي لاتحتاج في إدراكها إلى طول تفكير . وفي القرآن كثير غير هذا .

وأما ماجاء في السنة فشيء تصعب الإحاطة به ، ولا بأس من ذكر شيء منه ؛ فقد روى البخاري رضي الله عنه أن سيدنا خبيبا رضي الله عنه كان يأكل الفاكهة في غير أوانها وهو أسير . وأن قريشا أرادوا أن يأخذوا قطعة من جسم سيدنا عاصم رضي الله عنه بعد أن قتل فلم

يستطيعوا ، وحال بينهم وبين ذلك ظلة من الزنابير . وأن رجلين خرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليلة مظلمة ، فأضاءت لهما عصا أحدهما ، فلما افترقا أضاءت للآخر عصاه . وأن سيدنا عبد الله والد سيدنا جابر ما زالت تظله الملائكة بعد قتله يوم أحد حتى رفعوه . وأن سيدنا سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه كان إذا دعا استجاب الله دعاءه بعين ما يطلب . واتفق مسلم فى هذا مع البخارى كما اتفقا على رواية أن عابدا ممن قبلنا يسمى جريجا رضى الله عنه اتهمته بغىّ أنه أبو ولدها الذى ولدته من سفاح ، فصلى ودعا ونخس الغلام قائلا له يا غلام من أبوك ؟ فأنطق الله هذا الوليد الجديد الولادة ، فأخبر بوالده الحقيقى وبرأ هذا العابد الجليل .

وروى البيهقى والحاكم وابن سعد عن سيدنا عبد الله بن جحش رضى الله عنه أنه كان يقول قبل يوم أحد : اللهمّ إنى أقسم عليك أن ألقى العدو غدا ، فيقتلونى ثم يبقروا بطنى ويجدعوا أنفى وأذنى ، وتسألنى بم ذلك ؟ فأقول فيك ، فقتل رضى الله عنه ، وفعل العدوّ به ما طلب .

وغلب المسلمين أعداؤهم فى غزوة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذهبوا إلى البراء بن مالك شقيق سيدنا أنس بن مالك خادم الرسول صلى الله عليه وسلم وقالوا : يا براء أقسم على ربك ، فقال : يا رب أقسم عليك لما منحتنا أكتافهم وألحقتنى بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان ما أقسم رضى الله عنه . وإنما طلب الصحابة رضى الله عنهم منه أن يقسم على ربه لأنهم سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيه « كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِى طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ ، منهم البراء بن مالك » رواه الترمذى والضياء فى المختارة .

وكهذا الذى حصل من سيدنا البراء ما حصل من سيدنا عمرو بن الجموح رضى الله عنه لما سمح له أولاده أن يخرج للجهاد فى غزوة أحد بعد أن شكا لرسول الله صلى الله عليه وسلم منعهم له من ذلك ، وكان أعرج ممن عذرهم الله تعالى إن تأخروا عن الغزو ، وكان مما قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : والله إنى أريد أن أطأ بعرجتى هذه الجنة ، فلما خرج بسلاحه مع المجاهدين استقبل القبلة وقال : اللهم ارزقنى الشهادة ولا تردنى خائبا إلى أهلى ، فرزقها رضى الله عنه ولم يرده ربه خائبا ، وحينئذ قال عليه الصلاة والسلام « والَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ إنَّ مِنْكُمْ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ ، مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ الجَمُوحِ ، وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَطأُ فى الجَنَّةِ بِعَرَجَتِهِ » رواه ابن عبدالبر فى الاستيعاب . وقال صلى الله عليه وسلم مثل هذا الحديث دون لفظ منهم فلان فى سيدنا أنس بن النضر عم سيدنا أنس بن مالك رضى الله عنه لما كسرت أخته الربيع سن جارية من الأنصار وطلبوا القصاص منها وحكم به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكان مع ذلك يقسم إن سنها لاتكسر ، ثم قبل أهلها الأرش ولم تكسر سن الربيع كما كان يقسم سيدنا أنس بن النضر رضى الله عنه ، رواه البخارى . وقال مثله فى سيدنا أويس القرنى رضى الله عنه ، رواه مسلم . وشرب سيدنا خالد رضى الله عنه السم يبرهن لقوم كافرين أن دين الإسلام حق فلم يضره ، رواه البيهقى وأبو نعيم وأبو يعلى . ودعا رضى الله عنه أن يكون الخل عسلا ، فكان كما دعا رضى الله عنه ، رواه ابن أبى الدنيا . وغسلت الملائكة سيدنا حنظلة رضى الله عنه لما قتل فى سبيل الله ، رواه البيهقى وأبو نعيم وابن سعد ، وكان سمع خروج المؤمنين للجهاد فلم يسمح لنفسه أن يتأخر عنهم حتى يغتسل وكان جنبا .

ورووا أيضا أن شهداء أحد لما نقلوا من مكانهم الذى دفنوا فيه

وجدت أبدانهم رطابا للدرجة أن أطرافهم كانت تتثنى كما كانوا أحياء . وأصابت المسحاة رجل سيدنا حمزة رضى الله عنه فانبعثت دما ، وكان ذلك بعد ست وأربعين سنة من موتهم ، وقوله فانبعثت دما يفيد أنهم أحياء بأجسادهم حياة تشبه حياة الدنيا ، ولولا ذلك ما سال الدم من رجل سيدنا حمزة باصابة المسحاة لها ، فان الميت لانزاع فى أنه لادم له .

ولقد روت لنا جريدة الأهرام جملة حوادث لعباد صالحين ماتوا من مئات السنين ، أنهم وجدوا لاتغير بأبدانهم عن حياتهم الدنيوية وقت ما كانوا ينقلونهم من مدافنهم إلى مدافن أخرى لمناسبة فتح شوارع جديدة بالقاهرة من عهد ليس ببعيد ، وحدثنا نحن بحوادث كهذه ممن لانشك فى صدقه . فلنقل إذن جميعا « لاينكر بعد اليوم منكر » كما قال سيدنا أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه حينما رأى شهداء أحد ورأى ذلك الدم الذى ينبعث ممن مات من ست وأربعين سنة .

وقال سيدنا الزبير رضى الله عنه لابنه عبد الله ، وقد أخبره أنه ميت لامحالة ظلما فى وقعة الجمل : إن عجزت عن شىء منه : أى دَينه ، فاستعن بمولاى ، قال عبد الله : فوالله ما دريت مايقول حتى قلت : يا أبت من مولاك ؟ فقال : الله ، فوالله ما وقعت فى كربة من دَينه إلا قلت : يامولى الزبير اقض دينه فيقضيه . رواه البخارى .

وروى أيضا هو ومسلم والترمذى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ » ليسمع المنكر ثم ليسمع . وإنى أقول لو لم يرد فى كرامات الأولياء إلا هذا الحديث لكان كافيا وفوق الكفاية ، وإنى أرجو حضرة القارئ الكريم أن يقف هنا طويلا ويتأمل فى مبلغ عظم هذه الكرامة التى تحار الأفكار عند سماعها فى تقدير جاه سيدنا سعد هذا عند ربه عز وجل .

وروى الشيخان البخارى ومسلم والترمذى أنه صلى الله عليه وسلم

قال « يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَغْزُو فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ فَيَقُولُونَ هَلْ فِيكُمْ مَنْ صَاحَبَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم؟ فَيَقُولُونَ نَعَمْ ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ ، ثُمَّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَغْزُو فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ فَيُقَالُ : هَلْ فِيكُمْ مَنْ صَاحَبَ أَصْحَابَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ؟ فَيَقُولُونَ نَعَمْ ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ ، ثُمَّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَغْزُو فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ فَيَقُولُونَ : هَلْ فِيكُمْ مَنْ صَاحَبَ مَنْ صَاحَبَ أَصْحَابَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ؟ فَيَقُولُونَ نَعَمْ ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ ، ثُمَّ يَكُونُ بَعْثُ الرَّابِعِ فَيُقَالُ : انْظُرُوا هَلْ تَرَوْنَ فِيكُمْ أَحَداً رَأَى مَنْ رَأَى أَحَداً رَأَى أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؟ فَيُوجَدُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ » هذا الحديث مما اتفق عليه البخارى ومسلم . وهذا الطراز بين صحاح الأحاديث أعلاها وأرقاها ، وهو يثبت أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغوا من الوجاهة عند ربهم عز وجل إلى درجة أن الله تعالى يكرم بالفتح والنصر على الأعداء جيشا لا أقول منهم رضى الله عنهم ، ولا من طبقة رأتهم ، ولا من طبقة رأت من رأتهم ، بل يكفى لنصر الجيش أن يكون فيه واحد فقط رأى واحدا فقط ، وهذا الواحد الثانى رأى واحدا رأى أولئك الأصحاب رضى الله عنهم .

وهذا نوع من الوجاهة يجعل من لم يؤمن بالكرامات يؤمن بها رغم أنفه، كيف لا وهو يرى رب العالمين يأبى خذلان جيش فيه واحد فى الطبقة الرابعة من أولئك الغرّ الميامين رضى الله عنهم . وأحب أن لاينسى القارئ أنهم رضى الله عنهم لم يبلغوا هذه الدرجة الباهرة إلا لسرّ هو أنهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا هو الإكسير الذى كان ينقلب به الرجل من بدوىّ جلف إلى عالم ينطق

بالحكمة ، ومن شيطان رجيم إلى ملَك كريم ، ومن ظلمة حالكة إلى نور يتوهج توهجا تضيء به الدنيا من مشرقها لمغربها ؛ يا رب صل وسلم وبارك على هذا الرسول الكريم، وأفض علينا من بركاته ما يلحقنا بالصالحين من عبادك .

نعم كانت صحبته صلى الله عليه وسلم تأخذ بيد من فى الحضيض فترفعه إلى أرقى درجة لاتتصور رفعة البشر إليها ، ومن شك فى هذا فليسمع قوله صلى الله عليه وسلم « لاَ يُحِبُّ الأَنْصَارَ إلاَّ مؤمِنٌ ولا يُبْغِضُهُمْ إلاَّ مُنَافِقٌ ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللهُ ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللهُ » رواه البخارى ومسلم والترمذى . هذا جاه عريض ومنزلة يعرفها الناس للرسل صلى الله عليهم وسلم . أما رجل من أفراد الناس ليس بنبي ولا برسول ثم يكون حبه إيمانا وبغضه يكون كفرا ، يحب الله من يحبه ويبغض من يبغضه ، هذا شيء لولا أن نقرأه فى حديث نبوى فى أعلى طبقة من الصحة لكان عجيبا وغريبا وقعه فى نفوسنا . ومع ذلك من دقق النظر ظهر له أن هذا المعنى الذى يخبرنا به صلى الله عليه وسلم عن الأنصار معنى مألوف معروف ؛ ذلك أنك ترى الرجل يعامله الناس بما يعاملون به صاحبه ، فان كان صاحبه محترما عندهم احترموه وإلا أهانوه ، وبهذا عامل ربنا عز وجل أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم ، هو عنده صفوة الرسل فاختار له عز وجل صفوة الأمم ، لأن التناسب فى الصحبة لابد منه ، وربنا هو الحكيم وهو العليم ، فغير متصوَّر فى حكمته أن يأتى بأناس ليسوا بذلك ثم يجعلهم أصحاب أجلّ خلقه ، فان النفرة بينهما تكون مستحكمة لعدم التناسب وبُعد المشارب . فاستفد هذا أيها القارئ ولا يقع منك موقعا غريبا أن يكون حب أصحابه صلى الله عليه وسلم إيمانا وبغضهم كفرا ، خصوصا إذا كان السبب الباعث على الحب أو البغض عنوان هذه الصحبة

فان الحب والبغض يكونان منصبين عليه صلى الله عليه وسلم ، ولا يختلف أحد أن حبه صلى الله عليه وسلم إيمان وبغضه كفر .

وإني أكتفي بما سقنا قبلا من الخوارق التي بها أكرم الله بعض عباده المخلصين ، وأبان بها ما لهم عنده من جاه ومنزلة رفيعة . وليس ما سبق لنا ذكره بالنسبة لما لم نذكر شيئا يذكر ، فان الوارد في الكتاب والسنة لو جمع — وجمعه عسير ثم عسير — لكان كثيرا ؛ وهذا الوارد بالنسبة لما لم ينقل ، وبالنسبة لما أكرم الله به أحبابه من ذلك العهد لليوم ، شيء يسير ثم يسير ، ولو جمع هـذا وهذا لبلغ عشرات بل ومئات المجلدات ، فان فضل ربنا على أحبابه بعيد حصره ؛ وكله من آثار ما لهم عنده من وجاهة رضي الله عنهم ونفعنا بمحبتهم وحشرنا في زمرتهم .

وإذا كان للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ذلك الجاه الذي بيناه في الترجمة التي قبل هذه ، وللأولياء رضي الله عنهم هذا الجاه ، وقد تبينا كالشمس نهارا ولا غيم ؛ فأي لوم على من يلوذ بهم ويتحبب إليهم ويُسرّ السرور كله إذا أنعم الله تعالى عليه بمحبتهم له ورضاهم عنه ويغتم الغم كله إذا أحس بشيء من تغير قلوبهم من جهته .

وأي لوم على من يذهب إليهم وهم أحياء أو أموات ويناديهم في شدائده كلها ويستغيث بهم أن يتوجهوا إلى خالقهم بما لهم عنده من جاه ومنزلة ويسألوه بألسنتهم الطاهرة أن يتفضل عليه بمنحه ما له من حاجات ، إن من لا يفعل ذلك وهو يعلم ما لهم من تلك الوجاهة عند ربهم ، يكون قد غبن نفسه غبنا لا يعرف مداه ؛ وجنى عليها جناية لا يدري مبلغ أثرها عنده ، وسنتكلم فيما يأتي طويلا بمشيئة الله تعالى نشرح هذا المعنى شرحا لا يدع في قلب العاقل شبهة ولا شبه شبهة ؛ فلينتظر . وهل يستوي من يتقدم إلى ربه بنفسه وهو ملطخ بقاذورات المعاصي متدنس بدنس الذنوب ، بمن يتقدم إليه بين أحبابه وصفوته

من عباده يحتمى بهم بيده علم القبول الذى لاينكس ، وحجة النوز التى لاتخدش « أنْتَ مَعَ مَنْ أحْبَبْتَ » .

لفتة لمنكرى تلك الوجاهة

وإنى ألتفت إلى منكرى هذه الوجاهة ومنكرى آثارها أو المخففين من شأنها وشأن آثارها ، فأقول لهم :

أنتم يا إخوانى فى مقام لو فكرتم فيه لجزعتم على أنفسكم جزعا عظيما ، ورأيتم مستقبلكم أسود حالكا ، لاتدرون ماذا قضى لكم فيه من أنواع الإهانات . أحب أن تقولوا لى بانصاف : ماذا يفعل أحدكم إذا كان من أرباب الوجاهة ومن ذوى المروءة والأحساب الكريمة والوجوه الوجيهة ، وفيه من الدم العربى قطرات تجرى ، وجاءه من يستغيث به ويحتمى بحماه ويلوذ بأركان بيته هربا من ظلم الظالمين وعسف الجائرين واعتداء أهل السفاهة المعتدين ، ماذا يكون منك أيها الأخ إذا ترامى هذا فى أحضانك ولم ير له ملجأ ولا مفرا إلا إليك وواجهك بقوله : أنا فى وجهك عائذ بجاهك ممن يناوئنى ويريد البطش بى وأنا مسكين ضعيف لاناصر لى ، لاأظنك وقد دبت فى رأسك حمية العرب وهاجت فيه عاطفة الكرام إلا قائلا : إنى أقف دونه بنفسى وبرجالى وبمالى أحول بينه وبين أىّ أذى حتى الشوكة يشاكها من عدوه . إنك إن قلتها وجدت لك أسلافا من العرب الذين إليهم ينتهى خلق الوفاء فى عهدهم . فان أحدهم كان يسمع الكلمة من المغلوب يستنصره ويلوذ به ، وهو فى حيه هادئ مطمئن ، فيلقى رداءه عن كاهله ويقوم ثائرا كالعاصفة القاصفة ، ولا يهدأ إلا إذا قضى القضاء الأخير على كل ظالم يحيط بمن استغاث به أو يقضى هو وكل من يتصل به . وكم شبت حروب وكم وذهبت أرواح فى هذا السبيل . نحن لانبعد ونرجع بك إلى العرب الذين بعد عهدهم ونسيت أو كادت تنسى آثارهم ، بل نقول لك نحن اليوم نرى الرجل فى غاية الذل والضعة ، فاذا انتسب

إلى دولة من الدول القوية واحتمى بها ، تبدل بهذه الحماية ذله عزا ، وانقلبت ضعته رفعة ، وأصبح يتقلب في أنحاء الأرض يرفرف على رأسه علم تلك الحماية ، لا يخشى اعتداء من أحد ، بل يخشى اعتداءه الأقوياء ، يمر على من كان يحتقره ويؤذيه بالأمس فينكمش أمامه لايبدى ولايعيد . وكم رأينا دُولاً قامت وقعدت وقام بها من الغضب ما فعلت معه الأفاعيل من أجل اعتداء وقع على فرد ممن ينتمون إليها ويحتمون بحمايتها ؛ لأنها تفهم أن هذا الاعتداء وقع عليها هي ؛ لأن المعتدى لو كان يعرف قدرها ويحسب الحساب لعواقب غضبها ما كان يجرؤ على أحد تابعيها بالاعتداء عليه . وإذا كان هذا لايزال بين يديك تراه وتسمع به من وقت لآخر ، مع أن الخلق على ما تعلم من ضعف وذل ولؤم طبع . أفترى ربك القاهر القادر الكريم أقلَّ غَيرة على أحبابه وخواصه من الخلق ، فيتركهم يفعل بهم اللئام ما يفعلون من أنواع الإهانة ولا يغضب لهم ويحميهم من أعدائهم ؟ إنك إن فهمت هذا فقد ودعت عقلك وزايلت رشدك ، وأقمت البرهان أبلج واضحا على أنك لاتعرف ربك كما ينبغي أن يعرف . يجب أن تعلم أيها الأديب المهذب أن غَيرة ربنا على أحبابه وحمايته لهم من الخلق فوق ما يقع في خيالك وأسمى مما يتصوره فكرك . ألم تسمع أن حمايته لهم وغَيرته عليهم جعلته يبيد أمماً بأسرها ، ولا سبب لهذه الإبادة إلا غضبهم ؟ ولو كنت تحفظ القرآن أو تنظر فيه لما احتجت إلى تنبيهي هذا . ألم يهلك ربنا قوم سيدنا نوح بالطوفان غَيرة وانتصارا لسيدنا نوح صلى الله عليه وسلم ؟. ألم يهلك بالريح الصرصر العاتية قوم سيدنا هود انتصارا وغيرة وحماية لسيدنا هود صلى الله عليه وسلم ؟ . ألم يهلك بالصيحة قوم سيدنا صالح غيرة وانتصارا وحماية لسيدنا صالح عليه الصلاة والسلام ؟ . ألم يهلك قوم سيدنا لوط بالخسف والرجم بالحجارة غيرة وانتصارا لسيدنا لوط صلى الله عليه وسلم ؟ . ألم يهلك قوم

سيدنا شعيب بعضهم بالصيحة وبعضهم بالظلة غيرة وانتصارا لسيدنا شعيب صلى الله عليه وسلم ؟ . ألم يهلك بالإغراق فى البحر قوم سيدنا موسى وسيدنا هرون صلى الله عليهما وسلم غيرة عليهما وانتصارا لهما ؟ . ألم يهلك بالصيحة قوم صاحب ياسين لما نصحهم أن يتبعوا المرسلين فلم يسمعوا نصيحته وكذبوا الرسل الثلاثة صلى الله عليهم وسلم ؟ . ألم يمزق سبأ كل ممزق وجعلهم أحاديث للناس لما أعرضوا عن رسلهم ولم يتبعوهم ؟ . وليس هذا فقط تلك عادته مع كل أمة جاءها رسولها وكذبته كما يقول عز وجل (ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) .

ولقد روينا لك فيما سبق ، وليس العهد ببعيد ، قوله تعالى فى الحديث القدسى « مَنْ عَادَى لِى وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ » إن هذا التهديد بالحرب من الله تعالى لمن يعادى له وليًّا بلغ المنتهى فى التهويل . وإنما أبرزه ربنا بهذه الصورة التى تنخلع لها القلوب هلعا وفزعا ، ليعرف الناس لعباده المتقين حقهم ، ويقفوا أمامهم موقف الأدب الكامل والاحترام الذى كله إخلاص وتوقير كافِّين الكف كله عن أىّ إشارة تقع منهم موقع الغيظ والألم ، فاهمين حق الفهم قدر من هم فى حمايته ، مقدّرين حق التقدير ماذا يحل بهم من أنواع النكال إذا بدرت منهم بادرة ضد أولئك الصالحين .

نعم إن حماية ربنا لعباده الصالحين هى الحماية التى يقال لها حماية بمعنى هذه العبارة ، وما حماية الأفراد والدول بنسبة حماية هذا الإله القدير العزيز ؟ . إن حماية الأفراد والدول لمن تحميه يجوز جوازا قريبا جدا أن تداس وأن تهتك بداهية سماوية تنزل بالحامى تتركه أثرا بعد عين ، أو بفرد أقوى من الحامى ، أو دولة أقوى من الحامية ، فيغلب هذا الحامى الأضعف بمن هو أقوى منه ، وبهذا يصبح من كان بالأمس

فى حماية أولئك المغاوير ذليلا حقيرا يعانى من أصناف الصَّغار ما يستهين معه الموتَ . دعك من الخلق وقل لى : هل يستطيع الحامى : فرد أو دولة أن يحمى التابع من رب الجميع أن ينزل به من أشكال الذل ما لاقبل له به ؟ لا ، ولا يستطيع أن يحميه من الموت ، ولا يستطيع أن يحميه من عذاب الله بعد موته وبعد بعثه ، فانه هو لايستطيع أن يحمى نفسه من ذلك . ولكن من يحميه ربنا يحميه فى دنياه وفى برزخه وفى آخرته ، ولا تزال راية هذه الحماية على رأسه حتى يدخل دار النعيم المقيم واللذات الأبدية .

ومن به ذرة من العقل يسمع القادر المنتقم يعلن إعلانا عامًّا لايخص فردا دون آخر يهدد به ويتوعد بالحرب كل من عادى له حبيبا ، ثم يتقدَّم إلى أىّ حبيب من أولئك الأحباب بكلمة لا تناسب ؟ نعم إن هذه هى الحماية التى لو فهم قدرها الناس ما رضوا بسواها ، ولا عملوا للوصول إلى غيرها .

ومن هذا الوادى فى التهديد الذى ترتعد له الفرائص وتصفرّ منه الوجوه قول ربنا عز وجل (إنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا والَّذِينَ آمَنُوا فى الْحَيَاةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهادُ) وقوله عز وجل (وكانَ حقًّا علَيْنا نَصْرُ المُؤْمِنِينَ) وقوله تعالى (إنَّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا) ومن فى الدنيا يستطيع أن يقف أمام عباد يصرِّح من بيده ملكوت كلّ شىء الواحد القهار أنه يدافع عنهم وينصرهم على أعدائهم نصرا جعله حقا واجبا عليه ؟ . إن من يقف أمامهم - وحالهم ما ذكر - إنما يقف أمام من أخذ على نفسه نصرهم والمدافعة عنهم سبحانه وتعالى ، ولا شك أن من وقف هذا الموقف مخذول لامحالة وهالك دون أىّ تردد .

وإنى أحب مع هذا أن يقرأ المستخفّ بأحباب ربنا المنكر وجاهتهم ومنزلتهم السامية عند ربهم قوله تعالى (إنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا)

نعم أحسب أن يقرأها ثم يقرأها ، فانه يجده عز وجل لايقول : إن الذين اتقوا معى - ولو قالها لأفادت أنهم موضع رعايته وعنايته ونصره فان العادة تقضى أن لايتساهل عظيم فى شأن من فى معيته بل يجعلهم دائما محط نظره وموضع حفظه وكلاءته . نعم ما قال مولانا ذلك ، بل الذى قاله مولانا الجليل (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا) فجعل نفسه فى معية عبيده الأتقياء مبالغة فى عنايته بهم ومحافظته عليهم ، وما فى هذا التعبير من بأس أبدا ، فانه هو الرب والسيد على كل حال وعبيده هم عبيده وكفى ، وإنما ذلك تنزل منه تبارك وتعالى وإكرام لعبيده لاتشرئب الأعناق لمزيد عليه - مع ما فى هذا التعبير من التنصيص على المعنى الذى يوقع الرعب والرهبة فى قلوب السامعين . المعنى الذى لايحتمل غير الاهتمام والعناية والانتصار لأولئك المتقين . وبهذه المعية الإلهية للصالحين من العباد لم يبق أثر ولا شبه أثر لضعف أو فقر أو جهل أو ذل أولئك الأحباب . وكيف يبقى من ذلك وما إليه من النقائص والعيوب شيء ، والقوى الغنى العليم العزيز المتصف بكل كمال . معهم يفيض عليهم من آثار كمالاته ما يفيض مما لايعلم قدره سواه عز وجل . ومن يسمع مالك الملك ورب العالمين يخبر أنه مع المتقين ثم يدنو إليهم بأى أذى ، أبه خبل حتى يخفى عليه أنه يكون كأمس الدابر إن كان منه ذلك ؟ . وإذا لم يكن لمعادى أولئك الأحباب إلا النار تنتظره يوم القيامة يلاقى فيها من العذاب ما لاتحتمله الجبال ، لكفت رادعا وأثرا لهذه المعية وتلك الحرب الإلهية ، فكيف إذا انضم إلى ذلك ما يتوالى على ذلك المعادى من النكبات الدنيوية التى تنهال عليه كل يوم من أيام حياته ، تارة فى نفسه ، وتارة فى أمواله ، وتارة فى أهله ، وتارة فى أحبابه وناصريه ، مما يكون معه دائما موجع القلب مشوش الفكر مفرق الخاطر ، وقد لايفطن للسبب الذى له كل هذه الدواهى . إنى والله الذى نفسى بيده لاألوم أبدا من يتقدم إلى أولئك الأتقياء من العباد

فيقبل أيديهم ، بل ولا ألوم من يقبل أرجلهم ، بل ولا ألوم من يتبرك بثيابهم التي تشرفت بمس أبدانهم المباركة ، لا بل ولا ألوم من يتبرك بنعالهم التي لها الشرف والفخر بأنها مداس أقدامهم الكريمة ، لا بل ولا ألوم من يتبرك بالتراب الذي يطئون عليه بتلك النعال .

ولم يخطئ والله منفعته الدنيوية والأخروية رجل يخوض البحار ، ويقطع القفار في ظلمات الليل أو في هجير النهار راكبا نجائب همه ، تسوقه الأشواق إلى حيث يكون أولئك الذين لاذوا بالله واحتموا بحماه ، واتخذوا بضاعتهم الرابحة طاعته ، يستيقظون إذا نام الغافلون ، مستترين بظلام الليالي ، تشهد عليهم السماوات وكواكبها والأرض وآكامها ووهادها ، وهم في محاريبهم ركع وسجود تتدفق سيول عبراتهم على أودية خدودهم تلتهب نيران المخاوف من ربهم في مراجل قلوبهم ، وتراهم يصومون إذا أفطر عبيد البطون والفروج ، يبذلون في وجوه الخير من الأموال ما ملك قلوب كلاب الدنيا ، وأنساهم ربهم ودينهم ومستقبلهم السرمدي ، وإذا تفرقت قلوب الناس في شعاب الأهواء والشهوات كانت قلوبهم وقفا على حب مولاهم عز وجل وحب طاعته وحب أحبابه ، لايزايلها طرفة عين ملاحظة جلاله وعظمته . أشرفت عيون قلوب هؤلاء الناس على ما أعد لهم مما لم تر عين ولم تسمع أذن ولا خطر على قلب بشر ، فاستهانوا بزخارف هذه الحياة ، واحتقروا لذاتها وأغمضوا أعينهم عما لها من جمال مزيف .

وكيف ألوم من يتقرب إلى أولئك الناس على تقربه منهم وحبه لهم وهو إنما يتقرب هذا التقرب منهم ، لأنه يعلم أن معهم من بيده الآخرة والأولى ، فهو بهذا التقرب يتقرب إليه هو تعالى ، ويتعرض لحبه حيث إنه أحب أحبابه ، وهو يرى ويعلم منه مبلغ تلك المحبة . وهو تعالى إذا أحب كان للمحبوب كل ما يحب في دنياه وأخراه . فالذي يحب

أولئك المتقين ويدنو منهم للتبرك بهم إنما يفعل ذلك ليسعد فى هذه الحياة وفى الحياة الأبدية . ومن يلوم من يسعى ليسعد السعادة المطلقة ؟ .

من هذا يفهم القارئ أن حب الصالحين والتودد إليهم ينفع المحب لا فى دنياه فقط ولا فى أخراه فقط ، بل ينفعه فى الدنيا والآخرة معا . وكيف لاينفعه ذلك النفع ومع المحبوب من بيده الآخرة والأولى . ويفهم أن إيذاء أولئك الأصفياء لايضر من يؤذيهم فى دنياه فقط ولا فى أخراه فقط ، بل يضره فيهما جميعا ، وكيف لايكون ضرر مؤذيهم بهذه الدرجة والمنتقم القدير يحاربه ؟ .

إذن ليس اللوم على من يحب أولياء الله تعالى وأحبابه ، بل اللوم كل اللوم على من يحتقرهم ويستصغرهم ويهوّن من أمرهم وينفر الناس عنهم ، إلى حد أنه لو أمكنه أن يحول بينهم وبين الناس بحيث لاتكون بينهم جامعة أبدا ، لفعل فاهماً أنه يحمى الناس من الشرك وعبادة غير الله تعالى ، وهو يحول بينهم وبين ربهم وأحبابه ، هذا هو الذى يتوجه عليه اللوم بل أشدّ اللوم ، ويجب على المؤمنين أن ينهوه وينصحوه ، ويبينوا له أنه بفعله هذا فى صفوف من يؤذون أولئك الأولياء باحتقارهم ذلك وتخفيف شأنهم وإيقاع النفرة فى قلوب الناس منهم وعدهم أصناما تعبد من دون الله عز وجل ، وهم بهذا يؤذون الناس كذلك بتسببهم فى حرمانهم من التقرب ممن معهم رب الفضل والجود فى الدنيا والآخرة ، فهم بإبعاد الناس عن أولئك الصالحين يبعدونهم عن ربهم وفضله وإحسانه ، ذلك لانزاع فيه .

إنى لأكتب هذا كله أعالج به طوائف من الخلق موجودين على ظهر الأرض اليوم يدينون بالاستخفاف بصالحى عباد الله ، ولا تستبعد أن يكون فيهم من يدين بالاستخفاف بسيد الخلق ويعمل بكل جهده فى الحيلولة بينه وبين أمته .

وإنى لأستسهل حكمى على هؤلاء بذهاب عقولهم عن أن أقول إنهم

عقلاء، ثم مع عقلهم هذا يستخفون بأحباب مالك الملك وهم لايشكون في كلام الله الذي يخبر أنه تعالى معهم — وإن كانوا يشكون فلا علم لى بشكهم ذلك — فانى إن اخترت هذا الشق الثاني كان ذلك منى حكما عليهم بأنهم لايصدقون كلام الله ولا كلام رسوله وهو حكم في منتهى القسوة، لاأجترئ على إصداره على أحد من أهل القبلة. وإنما كان هذا الحكم لازما لاستخفافهم ذلك، لأنك رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر — كما روينا لك قريبا — أن أحد هؤلاء الأحباب يبلغ من القرب والدلال على رب الآلاء إلى حد أنه لو أقسم عليه لأبره. والحديث صحيح لاشك فيه، وسبق أن روينا لك أمثلة وقعت من هذا القبيل.

ومعنى هذا أن المسألة ليست خيالية ولا فرضية بل هي حقيقة واقعة وأمر جدّي لاهزل فيه، وهذا مقام لاأظن عاقلا يخالف في أنه من السمو والعظمة والفخامة بدرجة لايعلمها حق العلم إلا من منحها سبحانه وتعالى.

وإذا كان الأولياء يصلون من العظم عند خالق هذا الوجود إلى هذه الدرجة فليحكم لى على نفسه من يقف أمام هذا التعظيم الإلهي يحتقر ويستصغر أولئك العظماء، أليس حكمه ذلك على الأقل يكون بأنه يعاند ربه وخالقه؟ ربه يعظم عبيده وهو يحتقرهم؟ وإن شاء أن يخفف الحكم عن نفسه فليعترف بأنه لايدرى ما يقول، وإذا لم يصدق هؤلاء المستخفون بأحباب ربنا هذا الحديث وطعنوا فيه وهو صحيح، فماذا يقولون في القرآن وهو يصرح بأن أولئك الأتقياء هم الذين يقول ربنا عز وجل فيهم، كما قدمنا ذلك لك (إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا) فانه تعالى إذا كان معهم كان معهم كل خير لاتفرق في هذا بين حى وميت ولا بين نبى وولى، فان كلا موصوف بالتقوى وهي مدار هذه المعية الشريفة التي هي ينبوع كل إحسان، فمتى وجدت التقوى وجدت هذه المعية الخاصة. وينبغي أن يعلم أن هذه المعية تقوى كلما قويت التقوى؛

فهمة الله تعالى للأنبياء أقوى منها للأولياء ، وهى للأفضل من كل أقوى منها للمفضول ، فليعلم .

هل التوسل بالأنبياء والأولياء كفر بالله ؟

هذا العنوان – وإن كان يقع غريبا فى نفس القارئ الكريم – يقول بموجبه أناس موجودون اليوم على ظهر الأرض فيصدرون أحكامهم بالكفر المبيح للدم والمال وعلى كل من يتوسل بنبى أو ولى أن يقضى له ربه حاجته . وإنا نقول لهؤلاء الناس رويدا رويدا ، فان المتوسل بالأنبياء والأولياء لايعتقد ولا يخطر على باله أن الأنبياء أو الأولياء يقضون له حاجته التى يتوسل بهم إلى الله تعالى أن يقضيهاله ، وإنما الذى يعتقده ويعمله وينطق به كل متوسل أن قضاء الحوائج بيد رب العالمين لايسأل فى قضائها غيره ولا يقضيها سواه ، وليس لمخلوق كائنا من كان أن يقضى حاجة بمعنى يخلقها ويوجدها مستقلا . هذا ما عليه المسلمون صغيرهم وكبيرهم ، ذكرهم وأنثاهم ، وأبيضهم وأسودهم ، شرقيهم وغربيهم ، ليس فى عقائدهم أن لغيره تعالى حظا من الإيجاد والخلق .

وإذن من الأضاحيك أن يقول قائل : إن التوسل جائز إذا كان بالأحياء وليس بجائز إذا كان بالأموات ، فان هذا القول يشتم منه رائحة أن الحى لحياته يعمل ، فيمكن أن يقضى الحاجات . وأن الميت لموته لايعمل فلا يقضى الحاجات ، هذا ليس من عقائد المسلمين ، ولا يعرفه صغير منهم ولا كبير ، ونفس التوسل صريح فيما نحكى عن عقائدهم ، فان المتوسل لايرفع حاجته إلا إلى ربه ولا يطلب قضاءها من غيره ، وكل ما فى الأمر أنه يرى نفسه ملطخا بقاذورات المعاصى ، أبعدته الغفلات عنه تعالى أيما إبعاد ، فيفهم من هذا أنه جدير بالحرمان من تحقيق مطالبه وقضاء حاجاته ، وله الحق فى هذا الفهم ، فان الله تعالى

إنما يتقبل من المتقين ، وشؤم المعاصي معروف أثره في الحرمان من الخيرات . لأجل هذا يتقدم المتوسِّل إليه تعالى بأحبابه الذين لايعرفون إلا طاعته مبتهلا إليه بجاههم عنده وحرمتهم لديه أن يقضي له حاجته لأجل هؤلاء الأحباب الذين تقدم بهم إليه ، وهؤلاء الأحباب هم الذين عوّدهم تعالى أن ينعم عليهم ، فالمتوسل انحاز إليهم وبهم طلب حاجته عسى أن يحظى بالإنعام عليه بحاجته ، وهو بين هؤلاء المنعم عليهم ، وهم القوم لايشقى جليسهم فقط ، فكيف بمن جعلهم وسيلته إلى من عودهم الإنعام والإحسان ، وهو تلطف في المسألة جدير صاحبه أن يسعف بحاجته ولا يحرم منها .

وإذا كان هذا هو السر في التوسل فلا أثر إذن فيه لحياة المتوسَّل بهم أو موتهم . فانهم أحباب ربنا تعالى على أي حال كانوا ، وحرمتهم عنده هي حرمتهم ، وإنعامه عليهم إنعامه أحياء كانوا أم أمواتا ، وهو يكرم محبيهم كما يهين مبغضيهم ، على أي حال كانوا ، فلا بُعد إذن أن يكرم محبيهم المتوسِّل إليه بهم بقضاء حاجته .

إذا عرفت هذا عرفت أنه في ناحية ، وقول من يقول : إن التوسل لايجوز إلا بالأحياء في ناحية أخرى لاصلة بينهما ولا قرب .

وتعجب كل العجب إذا سمعت ذلك القائل يؤيد ما يذهب إليه بأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم توسلوا في استسقائهم بسيدنا العباس رضي الله عنه ، ولم يتوسلوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدل عملهم هذا على أن التوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم لايجوز لأنه انتقل من هذه الدار ، هكذا يستدلون على تلك الدعوى .

ونحن نقول لهم : إن هذه الصورة من التوسل لانخالفكم نحن في أن المتوسل به فيها يتعين أن يكون حيا ، لأن الناس يخرجون في الاستسقاء من البلد إلى خارجها ، وهناك يكون المتوسلون والذى يتوسلون به ، فيجب إذن أن يكون المتوسل به حيا معهم حياة دنيوية . أما من بارح الدنيا

من الأنبياء والأولياء فللبرزخ حكمه عليهم ، ومن أحكامه عليهم أنهم لايخرجون منه يمشون مع الناس نهارا جهارا حتى يكون بهم التوسل خارج البلد ، هذا هو السر الذى من أجله توسل الصحابة رضى الله عنهم بسيدنا العباس دون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الصورة صورة الاستسقاء . أما فى غير هذه الصورة فيجوز التوسل بالحى والميت على السواء كما أفهمناك .

والفرق بين الحى والميت فى غير صورة الاستسقاء فرق مضحك لانعلم أحدا من علماء الإسلام لامن المتقدمين ولا من المتأخرين ذهب إليه ولا أشار إليه غير ذلك الرجل الذى فاض إعجابا بنفسه ، فهوى إلى هوة من الاحتقار والازدراء لانهاية لها ، وعامله الله بغير ما كان يقصد، ذلك الرجل الذى خرق الإجماع فى كثير من مسائل وسعّر حربا بينه وبين صالحى عباد الله ، فأعلنه ربهم بالحرب ، فكان له فى حياته ما كان من إهانات تتلوها إهانات ، وماذا ينتظر القارئ من الإهانات لرجل عالم فوق أن تتفق كلمة علماء عصره ومعهم حكامه على الحكم عليه بإيداعه فى ظلمات السجون ، ولا زال فيها حتى فارق هذه الحياة ، والله أعلم بما لاقاه فى قبره .

نحن ما قلنا يوما إن المنح التى يمنحها الله عز وجل لصالحى عباده ، هم الذين يخلقونها ويخترعونها حتى يتوقف فى ذلك من يتوقف ويقول إن ذلك إنما يليق بالحى دون الميت ، وجعلنا بفرقه هذا نفهم أنه يسند الخلق والاختراع إلى الحى دون الميت ، إنما الذى نقوله فى أولئك الصالحين إنهم مواضع مباركة يفاض عليها من سماء الفضل الإلهى غيوث الرحمات والبركات وأنواع الكرامات . وليس بعاقل من يقول إن الحى أهل لأن تفاض عليه تلك البركات ، وأما الميت فليس بأهل لذلك . إن المسألة قابلة لأن نقول فيها : إن الميت أولى بالإحسان من الحى لأن الميت أحوج إلى الإحسان ؛ لانقطاع عمله الذى به تزداد درجاته

عند الله ، ولأنه أصبح بالموت على بينة تامة من ضعف العبودية ومبلغ حاجتها إلى فيض الربوبية ، ولا يعلم الحى ذلك بدرجة علم الميت مع ما يعترى الحى فى فترات غفلاته من دعاوى طويلة عريضة غدا الميت لايعرفها . لوقلنا هذا لانكون أبعدنا عن الحق فى هذه المسألة .

وعلى كل حال يجب أن نعلم أن هذه المنح التى يمنحها ربنا لخاصة خلقه ليس لهم فيها أكثر من أن يتمتعوا بها ويفرحوا فرح شكر بظهورها على أيديهم ، وربنا تعالى هو الذى يتولى منحها لهم أو لغيرهم من أجلهم . أما هم فلا دخل لهم فى خلق ذلك ، لا وهم أحياء ، ولا وهم أموات ، فليحفظ هذا ثم ليحفظ .

ومما يدل على طلب التوسل ما رواه أحمد وابن خزيمة فى صحيحه وأبو نعيم فى عمل اليوم والليلة ، والبيهقى فى كتاب الدعوات ، والطبرانى فى كتاب الدعاء ، وابن السنى وابن ماجه من أنه صلى الله عليه وسلم توسل وعلمنا أن نتوسل بحق السائلين على ربنا إذا نحن خرجنا إلى المساجد ، ولفظ الدعاء « اللَّهُمَّ إِنى أَسأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ ، وأَسأَلُكَ بِحَقِّ مَمْشاىَ هَذا إِلَيْكَ » إلى آخره ، فها هو صلى الله عليه وسلم يتوسل - وهو رسول الله - بحق السائلين على ربه ، يدعو كل مؤمن إلى التوسل بهذا الحق الذى جعله ربنا عز وجل للسائلين عليه تفضلا منه وإحسانا ، كما كتب على نفسه الرحمة ، وكما جعل على نفسه رزق كل دابة ، وكما جعل على نفسه أجر من عفا وأصلح . والسائلون : هم الذين عرفوا أنه تعالى هو الذى بيده وحده الخير وغير الخير ليس ذلك لغيره ، فأعرضوا عما سواه وقصروا عليه تعالى سؤالهم عما يحتاجون إليه دق ذلك أو جل ، وهؤلاء السائلون كانوا أو يكونون أو هم كائنون جعل لهم تعالى حق أن يعطيهم ما يسألون وفوق ما يسألون لمكانتهم السامية عنده تعالى ، أو حق السائلين

حرمتهم ومنزلتهم التى جعلها تعالى لهم ، وهو معنى لاتخطئ إذا جعلته متعينا .

وإنا لانطيل القول فى هذا الموضوع ، موضوع التوسل بالأحياء والأموات من الصالحين ، فان جواز ذلك ، بل وطلبه أمر يدين به كل مسلم فى مشارق الأرض ومغاربها ، لأن المذاهب الأربعة تجيزه ليس بينها خلاف فى ذلك ، والأمة الإسلامية كلها لاتخرج عن هذه المذاهب .

ولو كان فى التوسل أدنى ضرر يعود على المتوسل ما أجمع عليه علماء الأمة الإسلامية متقدموهم ومتأخروهم ، وقبلهم رسولهم صلى الله عليه وسلم

ولو قال من لايجيز التوسل إن المتوسل يجعل بينه وبين الله تعالى واسطة فى مسألته وذلك ضرر . قلنا له : من فى الدنيا يقول : إن هذه الواسطة تضر ، وكيف تضر وهو تعالى الذى أمرنا بها فى الدنيا والآخرة . أما فى الآخرة فحسبك فزع الناس إلى الأنبياء وتوسيطهم لهم بينهم وبين ربهم فى الشفاعة وسيأتى ذلك فانتظر . وأما فى الدنيا فقد جعل سبحانه وتعالى الأنبياء وسطاء بينه وبين خلقه فى هدايتهم ، وجعل الأغنياء وسطاء بينه وبين عباده الفقراء يوصلون رزقهم وفضله إليهم ، وجعل الأطباء وسطاء بينه وبين المرضى يتسببون فى دفع الأمراض عنهم وإعادة الصحة إليهم ، وجعل الطعام وسيطا بينه وبين الحيوانات ، به يدفعون الجوع عن أنفسهم ويجلبون الشبع ، وقل ذلك فى الماء ، وقله فى اللباس ، وقله فى النوم ، وقله فى النكاح ، وقله فى مراكب الماء ، وقله فى السعى على الأرزاق ، فانه لولا الماء لمتنا ظمأ ، ولولا اللباس لمتنا من البرد والحر ، ولولا النوم لمتنا تعبا ، ولولا النكاح ما رأينا الأولاد ، ولولا المراكب لغرقنا فى البحر إذا اقتحمناه ، ولولا السعى ما رأينا الأرزاق ، وهكذا كل هذا الوجود مبنى على الوسائط ، ولولاها ما فعل لنا ربنا شيئا من حاجاتنا بحسب عادته التى أجراها فى خلقه ، بل يوم القيامة لايدخل الجنة داخل ولا يدخل النار داخل إلا بواسطة

الأعمال ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ، تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ وكل هذا لاينكره جاهل ولا عالم ولا عاقل ولا أحمق ، اللهم إلا من فقد عقله وجن جنونا وجعل يهذى بما لايدرى ، فمثل هذا لايقام لكلامه وزن ولا يلتفت إليه ، فاذا كان من يتخذ شيئا من هذه الوسائط كافرا كان من يتوسل بأحباب الله إليه ويجعلهم وسائط كافرا ولا فرق أبدا .

وإن قال المانع : ولماذا لا يرفع السائل مسألته إلى الله تعالى بلاتوسط أحد ؟ قلنا : ليس الكلام فى هذا لأنه محل اتفاق ، إنما الكلام فى ذلك التوسيط ، ونحن نقول لكم : وماذا فيه وقد جعله ربنا سببا لقضاء حوائج عباده وأمر به . فرفع الحاجة إلى الله تعالى سبب لقضاء الحوائج ، والتوسل إليه بأحبابه سبب آخر ، فالمتقدم إلى ربه بعباده ليقضى له حاجته متقدم إليه بسببين ، والذى لايتوسل متقدم إليه بسبب واحد ، والمتقدم إليه بسببين أولى بفضله وإحسانه ممن يتقدم إليه بسبب واحد .

ولهذا المعنى توسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بحق السائلين على ربه ، وعلمنا أن نتوسل بذلك كما تقدم ، بل روى الترمذى والنسائى والبيهقى والطبرانى عنه صلى الله عليه وسلم « أنه جاءه رجل ضرير البصر فقال : ادع الله أن يعافينى ، فقال : إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ ، وإِنْ شِئْتَ صَبَرْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ ، قال : فادعه ، فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ، ويدعو بهذا الدعاء : اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ ، يا مُحَمَّدُ إِنِّى تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَى رَبِّى فِى حَاجَتِى هَذِهِ لِتُقْضَى اللَّهُمَّ فَشَفِّعْهُ فِيَّ ـ ولما دعا الرجل كما أمره صلى الله عليه وسلم استجاب الله له وعافاه وأصبح بصيرا » .

فليقل لنا أولئك المانعون ولينصفوا ، أهم أعلم بما يليق بالله عز وجل من سيد رسله وهو يأمر الضرير أن يوسطه بينه وبين ربه فى حاجته لتقضى ؟ أظنهم لايستطيعون أن يقولوها فليتفضلوا إذن وينضموا إلى إخوانهم أهل الإسلام بما فيهم رسولهم ، ويتنازلوا عن هذا المذهب الواضح البطلان المعاند لصحيح البرهان ، وإن أبوا فليعلموا أنهم الذين يجادلون فى الحق بعد ما تبين .

الاستغاثة بأحباب الله عند الشدائد

أما استبشاع فريق من الناس واستنكارهم استغاثة الناس بأحباب الله تعالى عند الشدائد ، فهو استنكار غريب واستبشاع إنما يصدر من رجل يستبشع ما أمر الله به ، بل أقول : إن إنكار هذا إنكار للمحور الذى عليه تدور مصالح الناس فى هذه الدار ، بل هو ينكر ما جبلت عليه الفطر من مبدئها لمنتهاها ، فان ربنا عز وجل أمرنا ـ وانظر أمرنا ـ أن نتعاون على البر والتقوى ، ووعد من امتثل أمره هذا وعدا تطرب الآذان لسماعه ، وتطير القلوب شوقا إليه ، ولا تذكره الجوارح إلا اندفعت اندفاع السهم إلى ذلك التعاون لاتعرّج على شىء سواه . ذلك الوعد الكريم هو أن يكون ربنا القدير الكريم فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه . ومن يسمع أن من بيده الخير كله يكون مع من يعين إخوانه ثم لايقضى كلّ أوقاته فى تلك المعاونة .

عرف الناس أن معاونة بعضهم بهذه الدرجة ، وعرفوا مبلغ حرص كل عاقل على الوصول إلى هذه الدرجة ليكون رب الآخرة والأولى معه بمعونته ونصرته وتوفيقه وستره . فلما عرفوا ذلك صار أحدهم إذا عرضت له منفعة يريد أن يجلبها ، أو مضرة يريد أن يدفعها ، يفزع إلى إخوانه يناديهم ويستعين بهم طالبا إسعافهم له ومعونتهم التى أمروا بها من خالقهم ، ووعدهم عليها ذلك الوعد الحق ليقوى بهم على جلب

مصلحته أو دفع مضرته ، والإنسان قليل بنفسه كثير باخوانه ، ضعيف وحده ، قوىّ إذا انضموا إليه ، فاذا سمعه الناس يستغيث بهم هرعوا إليه وزاحموه على قضاء حاجته . وكذلك يفعل هو معهم إذا استغاثوا به ، وهكذا يتبادل الناس هذا التعاون فى ليلهم ونهارهم ، فى سرائهم وضرائهم ، ضعفوا أمام حاجتهم أم لم يضعفوا . ثم يرون هذه الاستعانة وهذا التعاون لذة يتقاضونها ويحنون إليها بطبعهم الكريم من ناحية ، ومسارعة إلى امتثال أمر ربهم لينالوا وعده المحبوب من ناحية أخرى .

وهذه الاستعانة المرغب فيها غير الاستعانة الخاصة بالله تعالى التى لاتطلب من سواه . فان الاستعانة بالخلق معناها طلب المعونة منهم على وجه التسبب لمعونة الله تعالى التى هى خلقه وإيجاده لحاجاتهم التى يطلبونها منه ، فمعونة الخلق سبب ومعونة الله مقصد . خفى هذا الفرق على ذلك الفريق ، فجعلوا الاستغاثة بالخلق والاستعانة بهم عند الشدائد منكرا عظيما وإشراكا بالخالق عز وجل ، كأنهم — عافاهم الله — يرون أن المستعين بانسان يطلب منه أن يخلق له ما يستعين به عليه ، وهو فهم من لم يعرف الدين ولا أهل الدين .

وكيف يعرف ذلك من يكفر الناس بشىء هو قطب رحى هذا الوجود وعليه مدار نظامه ، فإن الاستغاثات والإغاثات لو منعت بين الناس لوقفت الحركة وتعطلت المصالح وأصبحنا نرى الناس ينظرون بأعينهم إلى من يراق دمه أو ينهب ماله أو يهتك عرضه فلا يلتفتون إليه وهو يستغيث بهم ، بل يرونه أحق بما يفعل به باستغاثاته تلك ، وذلك القضاء النهائى على الإنسانية وآثارها المباركة ، بل هو انسلاخ من الحيوانية ونزوع إلى خصائص الجمادات ، فان الاستغاثات والإغاثات معروفة بين الحيوانات التى لاتعقل ، ولا نعرف الجمود أمام مقتضيات الإغاثة إلا من الجمادات فقط ، فهل يريد من يمنع

الاستغاثات أن تنحاز إلى نوع الجمادات ؟ قد يقول ذلك الفريق أنا لا أنكر الاستغاثة بالحى ، إنما كل إنكارى على الاستغاثة بالميت ، لأن الحى له حركة وعمل ، فاذا استغيث به تحرك وسعى إلى المستغيث وعمل معه مايطلبه منه . أما الميت فلا يتأتى منه ذلك . لهذا أرى الاستغاثة به كفرا وشركا يحل به دمه كردته عن دين الإسلام . وإنا نضحك بمل‌ء فينا أو نأسف أشد الأسف لهذا العقل الذى ينقل الشىء من مأمور به مرغب فيه أشد الترغيب إلى منهى عنه منفر عنه كل التنفير ، وهو هو بعينه لم يتغير أىّ تغير ، فان الاستغاثة بالميت صيغتها هى هى التى يستغاث بها الحى ، وعقيدة المستغيث بالميت هى بعينها عقيدة المستغيث بأخيه الحى ، يستغيث بكل منهما أن يعينه على قضاء حاجته بصفته السببية ، ولا يعتقد لا فى الحى ولا فى الميت أن له أدنى دخل فى الإيجاد والخلق .

ولعل ذلك الفريق يرى أن الميت صار كالحجر لاحس ولا حركة له فكيف يستغاث به ؟ وإنا نعوذ بالله من اعتقاد مثل هذا فى أى ميت فضلا عن أحباب ربنا عز وجل ، ومع ذلك نتكلم معهم حتى على هذا الفرض فنقول : إن غاية ما حصل ممن يستغيث بالميت الذى صار كالحجر فى نظركم ، أنه اعتقد ما ليس سببا سببا ، ومن هذه حاله معذور من يرميه بأنه بلغ من الجهل درجة كبيرة ، فهو فى استغاثته عابث ولا فائدة له منها ، والذى ينبغى أن يتنبه مثل هذا من هذه الغفلة العظيمة ، وأن يعمل على تخليص نفسه من هذه الغباوة الفريدة ، فاذا كان ذلك ، استيقظ ووجه استغاثته إلى من يمكن أن يسمعه ويغيثه ، هذا الذى نقرره فى مثل ذلك الغبى الفرضى ، ولا يمكن أبدا أن نقول لمثل هذا أنت تستغيث بمن لايخلق فاهما أن يخلق حتى نصدر عليه حكمنا بكفره وإشراكه ، فانه حينما يستغيث بالأحياء الذين يجيزون له الاستغاثة بهم ،

لايعتقد فيهم أنهم يخلقون له ما يستغيث بهم لأجله ، وإلا كان ذلك كفرا ، مع أن الله تعالى أمر به ، وهل يأمر ربنا بالكفر ؟

كل هذا نقوله على تقدير أن المنتقل من هذه الدار من أحباب الله تعالى لاقيمة له أصلا ولا إعانة له بحال . ونحن لانقوله ولا نجيز لأحد أن يقوله ، ونرى ضلالا عظيما أن يقوله مؤمن بالله تعالى ، ذلك أنا أثبتنا بالبرهان القاطع – فيما سبق – أن الأنبياء أحياء في قبورهم يرون ويسمعون ويعملون حتى الحج والتلبية ، وذلك شيء كثير ، فهل كثير على من ذلك حاله أن يتولى إعانة غيره كما يعينه أي حي ، وإن كان ذلك الغير لايشعر به ولا يراه .

وهذا القرآن يصرح أن الشهداء أحياء يرزقون : أي يأكلون ويشربون ويتلذذون بذلك تلذذ الحي الذي يرزق في هذه الحياة ، فانه تعالى سوّى بينهما في أنه يرزق كلا منهما . وكذلك من هذا حاله ليس بكثير عليه أن يعين سواه .

وقد عرفت مما سبق أيضا أن أرواح الصالحين تجول في هذا العالم باذن ربها وتقول ما تقول وتفعل ما تفعل لمن شاء ربنا أن تقول له ، وأن تفعل . ومن يقول إن أمثال هؤلاء كثير عليهم أن يعينوا . زد على كل هذا ما صرح به القرآن من أنه تعالى مع الذين اتقوا . ولم يقل القرآن إنه معهم وهم في دار التكليف فقط ، بل أطلق فدل ذلك على أنه معهم في كل حال في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة . ومن في الدنيا يرى كثيرا على الله تعالى أن يكرم هؤلاء الأحباب بإغاثة من يستغيث بهم بواسطتهم أو مباشرة . وليتأكد القارئ أن هذا الذي يستغيث بهم لايستغيث بهم جزافا بل يستغيث بهم لأنهم أحباب ربنا وأولياؤه ، فاهماً أنه تعالى وليهم في الدنيا والآخرة ، ولذلك لانراه أبدا يستغيث بسواهم ممن فارق هذه الحياة . إذن هذه الاستغاثة موجهة في الحقيقة إلى ربهم ووليهم . ومن استغاث بعبدك وهو يعلم أنه لاحول ولا قوة له إلا بك

فهو مستغيث بك ، وإذا أنت سخرت ذلك العبد فى إغاثته ومكنته من ذلك فأنت المغيث فى الحقيقة والعبد آلة هذه الإغاثة ، وهذه الحقيقة لاتخرج المستغيث عن أن يكون مستغيثا بعبدك ، ولا تخرج العبد إذا أغاث بقوة سيده عن أن يسمى مغيثا فليعلم .

ثم كثيرا ما ترى بعض الناس يستغيث بنبى أو ولى ، فتسأله ماذا يعمل لك هذا وهو مثلك ؟ أيخلق لك ماله تستغيث به ؟ فيبادرك فى الحال بقوله : إنى أستغيث به لأنه أقرب إلى ربى منى ، فلعله يتوجه إلى ربه بوجهه الوجيه عنده ، ويبتهل إليه بلسانه الطاهر أن يقضى لى حاجتى .

وقد سأل كاتبَ هذا كثير من الناس هذا السؤال مرات كثيرة ، فأجبت بهذا الجواب بعينه من أناس عامة عند استغاثتهم ببعض الصالحين .

فاذا نحن حللنا استغاثة الناس بأحباب الله تعالى الأموات إلى هذا المعنى الذى يقصدونه ويفسرون به استغاثتهم - وهو معنى فى غاية الصحة والوضوح - فكيف تكون كفرا تلك الاستغاثة وإشراكا بالله عز وجل تحل به دماؤهم وأموالهم وفروجهم ؟ إن هذا الذى يقولونه لا يخالف أبدا محض الإيمان .

وإن قال هذا الفريق : إن هذه الاستعانة والاستغاثة بالأموات لم تكن فى الصدر الأول ولا حصلت من واحد من سلفنا الصالح ، ولو كانت خيرا لكانت منهم وما فاتتهم . فأقول : إن هذا النفى اللسانى سهل جدا لايكلف النافى أكثر من تحريك لسانه حركة بسيطة . أما إثبات ذلك فدونه أهوال ، فان هذا النافى ما كان مع كل فرد من أفراد السلف الصالح يسمع كل كلمة ينطقون بها ويرى كل عمل يصدر منهم حتى يصح منه هذا النفى الكلى . قد يقول : إنه لم ينقل عنهم ، ولو كان لنقل لنا من ذلك شئ ، وإنا نقول له : إن النقل لم يحط بكل ما كان فى ذلك العهد ، فكم من أعمال وأقوال كانت ولم تنقل ، ولو نقل كل ما صدر فى ذلك الزمن من قول وفعل لضاقت عنه الأوراق ووقفت عجزا عن

نقله الأقلام . على أنا نقول إن أئمة هذا الدين قادة الخلق وورثة الأنبياء قد استغاثوا فى عصورهم المختلفة برسول الله صلى الله عليه وسلم وبغيره من الأنبياء والصالحين ، وهم أعلم الناس بالدين وبأسراره وما يجيزه وما يمنعه ، وقد نقل ذلك عنهم ؛ وهذه الكتب بين أيدينا فيها من ذلك الكثير ثم الكثير . وإن شئت أن تسمع من ذلك شيئا فدونك . روى البيهقى أن أعرابيا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستسقى به ، وأنشد أبياتا فى آخرها :

وليس لنا إلا إليك فرارنا ... وأين فرار الخلق إلا إلى الرسل

وروى الطبرانى أن سيدنا سواد بن قارب أنشد بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم قصيدته التى فيها :

فأشهد أن الله لارب غيره ... وأنك مأمون على كل غائب
وأنك أدنى المرسلين وسيلة ... إلى الله يا ابن الأكرمين الأطايب
فمرنا بما يأتيك يا خير مرسل ... وإن كان فيما فيه شيب الذوائب
وكن لى شفيعا يوم لا ذو شفاعة ... بمغن فتيلا عن سواد بن قارب

وذكر العلامة ابن حجر فى كتابه المسمى « بالصواعق المحرقة » أن الإمام الشافعى رضى الله عنه قال :

آل النبى ذريعتى ... وهمو إليه وسيلتى
أرجو بهم أعطى غدا ... بيدى اليمين صحيفتى

وقال شمس الدين بن جابر الأندلسى :

قسما لئن أبصرت دار محمد ... وشهدت من مغناه معنى مبهجا
لأعفرنّ بتربها كرما له ... خدّا بمسكوب الدموع مضرّجا
ولأدعونّ دعاء عبد مخلص : ... يا سيد الكونين أنت المرتجى
يا من إذا لجأ الضعيف لبابه ... أبت المكارم أن يضيّع من لجا
عظمت ذنوبى والعظائم كلها ... بعظيم جاهك نرتجى أن تفرجا
خذ سيدى بيدى أغثنى إننى ... أصبحت فى بحر الذنوب ملجلجا

مَن منقذى إلا شفاعتك التى تنجى إذا لهب الجحيم تأججا
صلى عليك الله ما صدع الدجى صبح تلألأ ضوءه وتبلجا

وقال الحافظ بن حجر العسقلانى :

يا سيد الرسل الذى فاق الورى بأسا سما كل الوجود وجودا
هذى ضراعة مذنب متمسك بولائكم من يوم كان وليدا
يرجو بك المحيا السعيد وبعثه بعد الممات إلى النعيم شهيدا
صلى عليك وسلم الله الذى أحيا بك الإيمان والتوحيدا

وقال الإمام تقى الدين ابن دقيق العيد :

يا رسول المليك دعوة من زا د به شوقه وصح وداده
لك أشكو حالا من الدين والد نيا شديدا غلوه واقتصاده
هو هم ثنى السرور وغم كدر العيش عكسه واطراده
وعليك السلام من ذى اشتياق أنت فى الحشر كنزه وعتاده

وقال الإمام كمال الدين بن الزملكانى رضى الله عنه :

يا صاحب الجاه عند الله خالقه ما رد جاهك إلا كل أفاك
أنت الوجيه على رغم العدا أبدا أنت الشفيع لفتّاك ونساك
يا فرقة الزيغ لا لقيت صالحة ولا شفى الله يوما قلب مرضاك
ولا حظيت بجاه المصطفى أبدا ومن أعانك فى الدنيا ووالاك
يا أفضل الرسل يا مولى الأنام ويا خير الخلائق من أنس وأملاك
ها قد قصدتك أشكو بعض ما صنعت
بى الذنوب وهذا ملجأ الشاكى
قد قيدتنى ذنوب عن بلوغ مدى
قصدى إلى الفوز منها فهى أشراكى
فاستغفر الله لى واسأله عصمته فيما بقى وغنى من غير إمساك
عليك من ربك الله الصلاة كما منا عليك السلام الطيب الزاكى

وقال جمال الدين بن نباتة المصرى :

يا خاتم الرسل لى فى المذنبين غدا   على شفاعتك الغـــراء تعويل
وأنت أكرم من طاف الرجا وسعى
إلى حماه فكان القصـــد والسول
صلى عليك الذى أعطاك منزلة   شفيعها فى مقام الحشر مقبول
أنت المـــلاذ لنا دنيا وآخرة   فباب قصدك فى الدارين مقبول

وقال العارف بالله الشيخ حسين الدجانى مفتى الشافعية بيافة :

ياخير مولى عن الجانى المسىء عفا   وطاب من طيبه العرب البهاليل
ما ثم للعبد ملجا غير ســـيده   وما له فى سوى علياك تأميل
أنت العياذ المـــلاذ المستجار به   فليس إلا إليك الأمر موكول

وقال سيدى محمد البكرى الكبير رحمه الله :

ما أرسل الرحمن أو يرسل   من رحمة تصعد أو تنزل
فى ملكوت الله أو ملـكه   من كل ما يختص أو يشمل
إلا وطه المصطفى عبـــده   نبيـــه مختاره المرســـل
واسطة فيها وأصـــل لهـا   يعلم هذا كل من يعقل
فلذ به فى كل ما ترتجى   فانه المقصـــود والمأمل
وعذ به من كل ما تختشى   فانه الملجأ والمعقـــل
وحط أحمال الرجا عنـــده   فهو شفيع دائمـا يقبل
وناده إن أزمة أنشبت   أظفارها واستحكم المعضل
يا أكرم الخلق على ربه   وخير من فيهم به يسأل
قد مسنى الكرب وكم مرة   فرجت كربا بعضه يذهل

نقلت هذا كله من كتاب « شواهد الحق » للشيخ المحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم حبا ظهرت آثاره أعظم ظهور الشيخ « يوسف النبهانى » أطال الله حياته . والذى نقلته قطرة من بحرمما فى هذا الكتاب وما فى هذا الـكتاب قطرة من بحر ممـا قيل فيه صلى الله عليه وسلم توسلا واستغاثة به عليه الصلاة والسلام . وإذا أضيف ماقيل فى غيره

صلى الله عليه وسلم من الأنبياء والأولياء إلى ما قيل فيه صلى الله عليه وسلم كان لاحصر له نثرا ونظما ، فليكتف الناظر هنا بما نقلنا ، ولينظر كلام أئمة الإسلام وسادة الأمة فيه صلى الله عليه وسلم وفى مخاطبتهم له واستغاثتهم به عليه الصلاة والسلام ، يجد أن ما عليه الأمة مع علمائها فى جهة ، وما يقوله ذلك الفريق فى جهة أخرى .

وأقرب من كل هذا أن نقول لمنكر صدور ذلك من السلف الصالح : سلمت لك ذلك ياأخى ، ولكن هل كل مالم يفعله السلف الصالح منكر لايجوز فعله ؟ إن هذا إنما يقوله الجاهل بدين الإسلام ، يريد بجهله هذا أن يلصق بهذا الدين أنه من القصور بالدرجة التى لايحسن معها التصرف فى الحوادث التى تحدث بعد عهد نزوله ، وهل يرضى له بذلك مسلم ، وهو الدين الذى نزل صالحا لكل زمان ومكان ، لديه من سعة النظر ما لايتوقف معه عن الحكم على أى حادث بحكمه المناسب له . ولقد كان أن حدثت له حوادث لاتحصى بعد زمن تشريفنا به وحكم عليها كلها ، ومن بينها ماحكم عليه بالوجوب القطعى ، ولا يزال فى استعداد لأن يحكم على أى حادث يحدث ، فلا يضر جواز أى عمل أنه لم يعمل إلا بعد زمن طويل من الصدر الأول .

بقى أن يقال : إن بعض العوام إذا استغاث بأولئك الأحباب يخاطبهم فى استغاثته بألفاظ ربما فهم منها سامعها أنهم يطلبون منهم ما لايليق أن يطلب إلا من الله تعالى ، وإنا نقول فى هذا : إنك لو سألت هذا الذى يوهمك قوله ويجعلك تسىء الظن به لأزاح ما فى نفسك بإظهار مكنون قلبه ومخبوء إيمانه الصريح الصحيح الذى لم يطرأ عليه من أمراض القلوب ما يخدشه ، ولقد راجعناهم ـ كما قلنا سابقا ـ ثم راجعناهم فكان يملأ قلوبنا سرورا ما نسمع منهم من عبارات تشفّ عن إيمان فى غاية الصفاء والمتانة ، فكنا لانستغرب ذلك ، فان الفطر السليمة لايخفى عليها ما يناسب الخالق وما يناسب المخلوق . نحن نقول هذا

فى الفطر السليمة بمجردها ، فكيف إذا شبت وشابت فى أحضان المؤمنين من آبائهم وجيرانهم وعلمائهم؟ ، على أنك لو دققت النظر قليلا لوجدت فى لغتنا ما يسيغ تلك العبارات ولا يأباها ، فانك تستطيع أن تقول : فلان هدانى وأضلنى ، وأغنانى وأفقرنى ، وأحيانى وأماتنى ، وأسعدنى وأشقانى ، ورزقنى وفرّج كربى وأقالنى عثرتى - إذا تسبب لك فيما تنسبه إليه .

وهذا القرآن يقول للنبى صلى الله عليه وسلم (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ويقول فى الأصنام (إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ) ويقول فيمن تسبب فى حياة نفس (وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً) ويقول (فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ) ويقول حاكيا عمن حاج إبراهيم فى ربه لما قال له سيدنا إبراهيم (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ . قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ) فسلم له ذلك سيدنا إبراهيم وانتقل إلى حجة غيرها ، لأنه يعلم أنه صادق فيما يقول ، ولا يأبى الدين ما يقول ، لأنه على معنى أنه يتسبب فى حياة من أشرف على الموت وموت من هو فى عافية ، وغير ذلك كثير فى الكتاب ، ولم يعد ذلك إشراكا بالله تعالى ولا له بمخالفته أىّ صلة ، والسنة صرحت بإسناد تفريج الكروب وإقالة العثرات إلينا ، ولو أنا تنطعنا لقلنا إن هذا كفر ، فان الإحياء والإماتة والهداية والإضلال والرزق والإشقاء والإسعاد وتفريج الكروب وإقالة العثرات وما إليها ، لايقدر عليها إلا الله عز وجل ، فمن أسند منها شيئا لغيره عز وجل فقد مرق من الإسلام وكان مشركا ، نحن لم نبلغ من الجهل بلغتنا الكريمة إلى هذه الدرجة ، وهى التى تسند الأفعال إلى الأسباب إسنادا اعتياديا ليس فيه أدنى حرج ؛ فلو أنا أوتينا سعة من العلم وإحاطة بأسلوب لغتنا وبصيرة باستعمالات كتابنا وسنة نبينا ، لخففنا من حدتنا وهوّنا من غضبنا وشدتنا على من يخاطب أحباب ربنا بما يخاطب به ربنا ، وقلنا إن هذا

من ذلك ، وتصرفنا تصرف ربنا ونبينا فى مثل هذه الإسنادات ، وقلنا إن الخطب هين ، لم نفعل ذلك وأبينا إلا أن نشدد ، ومن شدّد شُدِّد عليه ، ونحكم على عباد الله المؤمنين بالكفر الصريح والشرك المحض ، ونتبع ذلك بآثاره التى منها القتل وإراقة الدماء . يجب على ذلك الفريق أن يعرف أن إيجاد الفعل لابد له من أمرين : سببه الذى كلف به الخلق ، والأمر الثانى الإيجاد والخلق الذى يصدر من الله تعالى — كل أفعال الخلق هكذا — فباعتبار مباشرة الأسباب يسند الفعل إلى الخلق إسنادا تعترف به اللغة والشرع معا ، وباعتبار الخلق والإيجاد يسند الفعل إلى الله تعالى . ولقد وصل الإسناد إلى السبب أن يقول ربنا عز وجل لسيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام (وإذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ) فنسب إليه الخلق والإيجاد باعتبار التصوير والنفخ ، كما أسند إليه إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى لما أنه تسبب فى ذلك ولم يطلق ذلك ربنا إلا لأنه تعالى يجيز لغيره من خلقه أن يعبر بمثل تلك العبارات دون أن يكون فيها شىء متى كان القلب ينطوى على ما للخالق وما للخلائق ، فنسند إلى كلٍّ ما يليق به .

وإذا أحاط القارئ بكل هذا عرف حق المعرفة أين دين الله ؟ وأين تلك الأحكام بالشرك على من يخاطب فى استغاثته أحباب ربنا بما لايكون إيجادا وخلقا إلا من ربنا عز وجل ؟ وعلمت ماذا من الإثم الموبق على من يقتل مؤمنا لتعبير سائغ لغة وشرعا كتلك التعبيرات التى هى موضوع كلامنا ، وعلمت أىّ جرم يرتكبه من ينطوى لأهل الإيمان على العداوات الخطرة ، ويواجههم بالمخاطبات الجافة الخشنة ، ويعاملهم بالمعاملات التى لاتليق إلا بأعداء الله الكافرين ، مع أن الله تعالى يجيز ما يمنعون ، وهو الذى باسمه يفعلون ما يفعلون من المنكر مع أوليائه وعباده الصالحين . ولو أن أولئك الناس قالوا لمن يعبر بتلك العبارات الموهمة فى نظرهم : الأفضل والأحسن أن تبدل هذه العبارات

التى قد يفهم منها سوءا من يسىء الظن بالمؤمنين ــ بعبارات لاتوهم ولا يفهم منها أحد ما لعله يسىء ظنه بهم ، لو قالوا ذلك ما لقوا من يقول لهم إنكم أبعدتم عن الحق وقلتم ما يعده الإنصاف خطأ ، فان ما لايوهم خيرا مما يوهم بلا نزاع .

هذا تحرير القول فى هذا الموضوع الذى غالى فيه ذلك الفريق الذى نشير إليه إلى درجة أن جعله من أبواب الكفر التى لايمترى فيها إنسان . وقد عرف القارئ مما تقدم مبلغه فليحرص عليه ، فانه لايجده إلا فى هذه العجالة التى اشتد حرصها على بيان الحق غير تابعة فى ذلك لمخلوق ، والله تعالى أعلم .

هل التردد والتودد إلى أحباب ربنا عبادة

وأما القول بأن التردد إلى صالحى عباد الله تعالى والتودد إليهم وإجلالهم والتقرب منهم على أىّ حال كانوا ، فى درجة العبادة لهم وبهذه العبادة يكون الإنسان مشركا بالله تعالى مرتدا عن الملة الإسلامية ، فهو قول تقشعرّ منه أبدان العقلاء ، ولا يليق أن ينظر إليه المؤمن إلا بعين الازدراء والمقت . قول إذا قيل إنه صدر من مجنون أو ممن لايعرف دين الإسلام ، وجد ذلك القيل ارتياحا فى نفوس المؤمنين ، وصادف هوى فى نفس كل من يعرف لدين الإسلام قدره . ولو أنا قلنا بموجب ذلك القول لكان أكبر المشركين بالله عز وجل وأعظم العابدين للخلق الخارجين عن الملة الإسلامية ، هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان ما تقدم لنا حكايته عنهم من تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم شىء إليه المنتهى فى إجلال الخلق وتعظيمهم ، ولا نظن أبدا أن يلحق بهم عبد فى هذا الميدان مهما كان محبًّا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لغيره من الأنبياء والأولياء ، وإذن يكونوا أكبر المشركين كما قلنا ــ لذلك التعظيم الذى روينا بعض ما يدل عليه فيما سبق ــ

ويكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقر ورضى بأكبر الشرك .
ولعل حضرات القائلين بأن ذلك التعظيم عبادة يفزعون من هذا ويضطربون ، ليفزعوا وليضطربوا وليرتقوا السماء ولينزلوا إلى الأرض ، فليس لهم من هذا مخرج إلى يوم القيامة . لقد قلنا لهؤلاء الناس ونقول ولكنهم لايفهمون ولن يفهموا : إن إجلال هؤلاء الأصفياء وتعظيمهم هو تعظيم لربهم الذى عظمهم وأنعم عليهم ، وأخبر أنه معهم معية هداية وتوفيق ونصر وإكرام .

إذن هذا التعظيم يفعله الناس طمعا فى إحسان ربهم وهربا من إهانته ، لأنه يحسن إلى من أحب أحبابه ويهين من أهانهم ، ولهذا نجد الناس لايعاملون الفسقة بتلك المعاملة الجليلة أبدا ، بل نراهم يعاملونهم بعكس ما يعاملون به الصالحين ، يفرون من الفاسق أينما كان ، وربما رأيتهم يحولون أنظارهم عنه إذا جالسهم لئلا تقع عليه ، وتراهم يتسللون من مجلسه واحدا واحدا ، يحملهم على ذلك فهمهم أن هذا الفاسق مغضوب عليه من ربه ، فهو شؤم على نفسه وعلى من جالسه ، والبعد عن الشؤم يُمن وبركة .

ومختصر القول فى حب الصالحين وزيارتهم والتردد إليهم فى رياض الرحمات التى يحلون بها أحياء وأمواتا ، أن ذلك مهما بلغ من العظم عند المؤمن لم يتجاوز درجة الحب فى الله تعالى ، والحب فى الله عز وجل معروف قدره فى نظر الدين من أنه أوثق عرى الإيمان ، والذى أفهمنا أنه أوثق عرى الإيمان حضرة نبينا صلى الله عليه وسلم ، فلينظر القارئ أين هذا مما ننقله ونحكيه ، نعم إن عجيبا أن يكون الشىء أرقى المقامات فى دين الإسلام ثم يحكم عليه أناس بأنه كفر وإشراك . ليعلم هؤلاء الناس أن العبادة التى يعرفها المؤمنون هى نهاية الحب والخضوع والخوف والرجاء والطاعة والذل تقربا إلى المعبود بحق الذى له نهاية

الإنعام والإحسان ، وبيده الضر والنفع والإسعاد والإشقاء والإعزاز والإذلال فى الدنيا والآخرة .

هذه هى العبادة ، وهذا هو المعبود الذى لايرضى المؤمنون عن عبادته بدلا ولو أحرقوا بالنيران ونشروا بالمناشير ، وإنى أتحدى كل من يقول : إن الناس يعبدون أحباب ربنا ـ أن يأتوا بمثال واحد فقط من المؤمنين يعتقد فى نبى أوولى أن له نهاية الإنعام والإحسان وبيده الأمر كله، وبناء على هذا الاعتقاد يخضع له الخضوع كله ويتقرب إليه بشىء من العبادات ، إنهم إن فعلوا ذلك ـ ولن يفعلوا إلى قيام الساعة ـ صدقنا كل ما يقولون وكنا معهم نحول بين الناس وبين أولئك الصالحين نحميهم من الإشراك بهم .

إنى أقول ، وكل عاقل يقول معى : إن أحقر وأجهل وأسفل وأفسق مؤمن على وجه الأرض لو قلت له تعال اسجد لفلان الولى أو النبى تعبده بذلك من دون الله ، أو تقرب إليه بأى نوع من أنواع العبادة التى تعبد بها ربك أوصرحت له بلفظ العبادة ، وقلت له تعال اعبد هذا الولى أو النبى ولو كان سيد العالمين صلى الله عليه وسلم ، أو ادعه أن يقضى لك حاجة من دون الله ، ما كان بينه وبينك ، إن كان يعتقد أنك عاقل جادّ فى قولك ، إلا القتال إن قدر عليك ، أو الهجر طول حياته إن كان لايقدر . وكيف لايفعل ذلك معك : وهو يعتقد أنك تدعوه إلى شقائه الأبدى ، وقد يشك فى سلامة عقلك مهما تظاهرت له بذلك وبرهنت له عليه .

وبهذا تعلم أنه يفترى الكذب على الله تعالى وعلى عباده من يقول إن محبى الأولياء يعبدونهم ويصدق عليهم قول الله تعالى (ما نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونا إلى اللهِ زُلْفَى) فان الآية تقول بصراحة (مانَعْبُدُهُمْ) فأثبتت أن أولئك المشركين كانوا يعبدون الأصنام عبادة حقيقية كما يعبد المؤمنون ربهم الحق عز وجل ، وقالت آية أخرى (وَمِنَ

النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ) فهذه الآية صريحة فى أن عبّاد الأوثان كانوا يسوونها بالله تعالى فى المحبة ، بل أخبر ربنا تعالى فى آية أخرى أن أولئك المشركين كانوا ينظرون إلى آلهتهم نظرة أكبر من نظرتهم إلى رب العالمين ويرجحونها عليه . ذلك أنهم كانوا إذا جعلوا لله تعالى قربانا وجعلوا لأصنامهم قرابين سمحوا لأنفسهم أن يأخذوا مما جعلوه لله ويضيفونه إلى ما جعلوه لأولئك الحجارة ، أما العكس فلا تسمح به نفوسهم أبدا ، وقد حكى الله تعالى ذلك بقوله (وَجَعَلُوا لِلهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا : هَذَا لِلهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كَانَ لِلهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) .

ومما يدلك دلالة قاطعة على أن أولئك المشركين كانوا يعتقدون أن تلك الحجارة آلهة حقا تستحق العبادة تنفع وتضر وتفعل فعل الإله أن التعصب لأولئك الأصنام وصل من أولئك الناس لدرجة أن وقفوا أمام السيوف والرماح والنبال وجها لوجه متعرضين للأهوال والحتوف مصممين التصميم كله على أنهم إما أن يموتوا عن آخرهم محتفظين على عقيدة أن تلك الحجارة آلهة حقا مع الله تعالى ، بل أرجح عندهم منه أو يقضوا القضاء الأخير على من يدعوهم إلى عقيدة توحيد الله عز وجل ونبذ هذه الأصنام واعتقاد أنها حجارة لاتضر ولاتنفع .

نعم لقد استخفوا الموت وأهواله عن أن يقبلوا هذه العقيدة ، وكانت تلتهب قلوبهم نارا على من يمس تلك الحجارة بكلمة لاتناسب ، وكانوا مملوئين بعقيدة أن تلك الآلهة تعطى وتمنع وتنصر وتخذل وتعز وتذل . ولا أدل على هذا مما روته الصحاح عنهم أنهم كانوا يقولون يوم أحد بأعلى أصواتهم « أعل هبل » أى يا إلهنا المسمى بهبل ندعوك ونطالب

منك أن ترتقى وترتفع على إله المسلمين بقهره والغلبة عليه دائما ، كما ارتقيت وارتفعت عليه اليوم ، فانك إن تماديت على ما نطلب منك من غلبة إله المسلمين ، نتمادى نحن على الانتصار على المسلمين كما انتصرنا عليهم اليوم . وهذا يدل قطعا على أن القوم كانوا يعتقدون اعتقادا جازما أن الذى نصرهم وخذل المسلمين هو آلهتهم ، وجاء هذا النصر من أن تلك الآلهة غالبت إله المسلمين فغلبته ، ولهذا هم يطلبون من هبل الذى هو أحد آلهتهم أن يدوم على هذه الغلبة . ومن هو إله المسلمين عندهم ؟ هو رب العالمين الذى إن سئلوا عمن خلق السموات والأرض لاعترفوا بأنه هو . ومع ذلك ينطوون على أن آلهتهم تغلبه وتنصر عابديها على عابديه . ولذلك كانوا يفتخرون على المسلمين فى ذلك اليوم ويقولون لهم : لنا العزى ولا عزى لكم : أى أننا لما كان لنا الإله المسمى بالعزى قوينا عليكم بقدرته وغلبناكم وانتصرنا عليكم ، ولم يستطع ربكم أن يقاوم عزانا . ولو كان لكم العزى كما هو لنا ما جرى لكم اليوم ما جرى . فان العزى كان يحفظكم وينصركم كما حفظنا ونصرنا ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يردوا عليهم فى الكلمة الأولى بقولهم « الله أعلى وأجل » أى ليس الأمر كما تعتقدون من أن آلهتكم أعلى من ربنا بل الأمر هو بالعكس ـ وأفعل التفضيل يراعى عقيدة المخاطبين أو هو على غير بابه ـ وأن يردوا عليهم فى الكلمة الثانية بقولهم « الله مولانا ولا مولى لكم » هذا لفظ البخارى . .

وإذا كان ما نحكى هو عقيدة أولئك المشركين فى أصنامهم فهل يستطيع أولئك الذين يسوون بين المسلمين الذين يحبون الأولياء ويترددون إليهم ويترددون على الأماكن التى هم بها ، وبين أولئك المشركين فى أن كلا عابد أوثانا . أوثان المشركين الحجارة ، وأوثان المسلمين الأولياء والأنبياء ، هل يستطيعون أن يأتونا بمؤمن واحد من جميع أنحاء الدنيا شرقا

وغربا وشمالا وجنوبا ، يعتقد فى الأولياء والأنبياء كما يعتقد أولئك المشركون فى أصنامهم ، ويعبد الأولياء والأنبياء كما كان أولئك المشركون يعبدون آلهتهم ، إن طلوع السماء وتناولهم الشمس أقرب إليهم من أن يأتوا بذلك المؤمن الواحد .

وإذن لامناص لنا من أن نواجههم - ولامؤاخذة - بأنهم يرمون المؤمنين بما لاوجود له إلا فى أذهانهم ؛ وسيرون عاقبة هذا (يَوْمَ لايَنْفَعُ مالٌ ولا بَنُونَ إلاَّ مَنْ أتى اللهَ بقَلْبٍ سَلِيمٍ) .

لو سمعوا لى

ولو سمع لى هؤلاء الناس لقلت لهم : أقلعوا عن هذه الظنون الكاذبة ، وتطهروا من تلك الخيالات الخاطئة ، وتورعوا عن أحكامكم التى تصدرونها على المؤمنين كل يوم بدون عقل ولا روية ، فانكم ترتبون على تلك الظنون وهاتيك الأحكام آثارا هى منتهى البشاعة والفظاعة ، فان من يحكم بالشرك على واحد لايرى حرجا فى قتله وإراقة دمه تقربا إلى الله عز وجل ، وهذا ما أنتم عليه ويراه العالم كله منكم ، فانكم ما دخلتم جهة من الجهات إلا فتكتم فتك الجبابرة ، وبطشتم بطش من لايعرف الشفقة ولا الرحمة ، ومن رآكم وأنتم تذبحون عباد الله المؤمنين الموحدين جزم كل الجزم أنكم تتلذذون بقتلهم وترتاحون لإبادتهم ، ويخيل له أنكم لو أمكنكم أن تطهروا المعمورة من آثار المؤمنين لفعلتم فرحين مسرورين ، لاترون أىّ بأس فى استحلال فروجهم وأموالهم ظانين أنكم بهذا كله تنتصرون للتوحيد على الوثنية والوثنيين .

إنى أنصحكم ثم أنصحكم ، وليس علىّ إلا ذلك ، أن تثوبوا إلى رشدكم ، وتفكروا فى عاقبة ما أنتم عليه ، وترجعوا إلى ما قاله العلماء فى الحكم بالكفر ، فانكم تجدونهم شددوا فى ذلك كل التشديد ، حتى

صرحوا أن العالم لايجوز له أن يقدم على الحكم بكفر مؤمن إلا إذا سد في وجهه كل باب يمكن أن يصل منه إلى إيمانه ، أما لو وجد بابا واحدا ذلك حاله فلا يجوز له أبدا أن يحكم عليه بالكفر مهما كثرت الأبواب القاضية بتكفيره ـ حملا لحال المؤمن على الصلاح ، وبعدا عن موبقة إن زلق فيها الحاكم هوى على أم رأسه هويا آخره شقاء عظيم . وهل رأيت بلاء يقع فيه الرجل المؤمن أعظم من أن يفتى بكفر مؤمن آخذا على عهدته أنه من أهل الخلود الأبدى فى النار غضب عليه ربه غضبا لايرضى عنه بعده أبدا هذا فى الآخرة . وأحكام المرتد فى الدنيا تصورها فقط تدور له الرءوس وتنقطع الأكباد أسى وحسرة على من تجرى وتنفذ فيه تلك الأحكام ، إن هذا شىء عظيم ثم عظيم إذا تعلق بمؤمن واحد ، فكيف إذا تعلق بمئات وآلاف ومئات الآلاف بل بالعالم الإسلامى كله فى أىّ جهة من جهات الدنيا .

لهذا كله أقول لكم وأشدد فى القول : واجب عليكم وجوبا هو آكد الواجبات عليكم بعد الإيمان أن لاتتعجلوا على المؤمنين فى أحكامكم وراجعوهم وانظروا هل عندهم من موجبات الشرك شىء ؟ وموجبات الشرك معروفة ، فان رأيتم تلك الموجبات فاحكموا ، ولن تجدوا ذلك فى أجهل المؤمنين ، وإن لم تجدوا ـ وهذا هو الواقع ـ فأمسكوا ألسنتكم واغمدوا سيوفكم عن عباد الله تعالى ، ولا تؤاخذونى إذا قلت لكم : راجعوا موجبات الكفر فادرسوها درسا جيدا ، واعرفوها معرفة لاتقل عن معرفتكم للشمس وأنتم ترونها ليس دونها سحاب ، فانه ليس بلاء يصيب الإنسان فى الدنيا والآخرة إلا وأصله الجهل ، فاقتلوا الجهل قتلا فى هذا الباب ، حتى إذا ما أصدرتم حكمكم على مؤمن بالكفر يكون حكما صحيحا . وتحسنون الإحسان كله لو محوتم من ألواح أذهانكم هذا الباب كله ، باب التكفير وإراقة دماء المسلمين ، فانه أخطر شىء عليكم . ولو أنصفتم لغضبتم من أنفسكم فى هذا الباب ،

فانكم لاتقفون فى تكفيركم عباد الله تعالى إلى حد عامة الناس التى قد يصدقكم الجاهل سيىء الظن فى تكفيركم لهم ، بل تتجاوزون ذلك إلى الحكم على العلماء الأجلاء ورثة الأنبياء ، وقادة الأمة ومفزعها إذا دهمت مشكلة فى أى درجة كانوا من العلم ولو كانوا شيوخ شيوخ الإسلام . وموضع العجب أن الحكم بالكفر — وقدره ما شرحنا — يصدره أجهل واحد منكم على أى واحد من غيركم لايتوقف فى حكمه مهما كانت درجته فى الجهل والانحطاط ودرجة غيره فى العلم والارتقاء ، ومتى أصدر حكمه هذا لاترددون كلكم فى صدقه وإصابته كبد الصواب.

وأحب أن تقولوا لى : إذا كنتم تحكمون على علماء الإسلام بالكفر وهم المرجع عند الاختلاف ، فما يفعل المسلمون معكم إذا اختلفتم معهم فى شيء ؟ هل يتحاكمون إلى علمائهم أم يتحاكمون إليكم ؟ فان قلنا إنهم يتحاكمون إلى علمائهم تذكرنا أنهم عندكم كافرون ، ولا يجوز أن ينتدب الكافر كفر إشراك لأن يكون حكما . فان الحكم فى أرقى درجة ، والكافر كفر إشراك فى أحط درجة . وإن قلنا إنهم يتحاكمون إليكم . ولا مسلم على وجه الأرض إلا أنتم فى نظركم ، رأينا أن ذلك هو المتعين الذى لاترضون غيره . والنتيجة لهذا أنكم تكونون الخصم والحكم ، هذا تحديد موقفكم فاعرفوه . ويمكن للناظر هنا أن يظن أنكم إنما أصدرتم حكمكم حتى بكفر العلماء لتتخلصوا منهم ، فانهم هم الحكم المرضى الحكومة عند الناس ، وهم الذين تسمع لهم الأمة إن حكموا لكم أو عليكم ، فاذا ما وفقتم لأن تُفهموا الأمة أن هؤلاء العلماء الذين تجلونهم كل الإجلال وترجعون إليهم فى كل أموركم كافرون مشركون لايصح أن تسمع لهم كلمة ولا يؤمنوا على حكم ؟ فانكم بذلك تكونون نجحتم نجاحا ليس بعده من نجاح ، ولكنى أؤكد لكم أنكم لايمكنكم بحال أن تصلوا من الأمة إلى ذلك الحال . فأريحوا أنفسكم واسمعوا ما قدمت لكم من نصح .

هل تجوز زيارة القبور

هذا عنوان يتبادر إلى ذهن القارئ منه أن هناك أناسا يخالفون في جواز زيارة القبور ، وأنا أقول له إني لذلك وضعته ، وأزيدك أن أولئك الناس الذين يخالفون في جواز زيارة القبور يشددون في تحريمها تشديدا عظيما ، ولذلك تراهم ينظرون إلى من يجيز تلك الزيارة أو يفعلها ، بعين الاحتقار والازدراء ويسمونه « قبوريا » . ولاتعجب إذا قلت لك : إنهم يمنعون الناس من زيارة القبور منعا قهريا ، ويمدون أيديهم بالضرب المؤلم إلى من لم يمتثل نهيهم .

لاأقول ذلك نقلا عن غيرى حتى يجد الشك سبيلا إلى نفسك فيما أنقله لك ، بل أنا الذى أنقله ونقلى عن حس ، فلا يخطر ببالك أى شك فيه ، ولعلك تجد واحدا غيرى واثنين وعشرة ومئات وآلافا يوافقونى فى نقل ذلك إليك ، وهذا جهل بالدين إلى حد يجعل السامع به يعجب أن يكون فى الدنيا من المسلمين اليوم من يصل جهله بدينه إلى هذا الحد الذى ذكره ، وكتابته فضيحة من أكبر الفضائح لمن ينسب إليه . وكيف لايكون فضيحة وهو جهل بمذاهب المسلمين كلها ؟ فهى تجيز تلك الزيارة وتشرح للزائر آدابها ، وهو جهل كذلك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانه صلى الله عليه وسلم زار القبور بنفسه وعلم أصحابه كيف يزورون القبور ، وكان منهم ذلك فى حياته الدنيوية ، صلى الله عليه وسلم .

أما زيارته هو صلى الله عليه وسلم فيدل عليها ما رواه مسلم عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم أخبرها « أَنَّ جِبْرِيلَ جاءَهُ فَقالَ لَهُ إِنَّ رَبَّكَ يأمُرُكَ أَنْ تأتِيَ أَهْلَ البَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ » . وأنه صلى الله عليه وسلم جاء البقيع

فقامَ وأطالَ القيامَ ثمَّ رفعَ يديْهِ ثلاثَ مرَّاتٍ » وأنها رضى الله عنها قالت له : كيف أقول لهم ؟ فقال « قُولِي : السَّلامُ عليكُمْ أهلَ الدِّيارِ مِنَ المُؤْمنينَ والمُسْلِمينَ ويَرْحَمُ اللهُ المُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا والمُسْتأخِرينَ ، وإنَّا إنْ شاءَ اللهُ بِكُمْ لَلاحِقُونَ »

بل روى مسلم عن أمنا السيدة عائشة رضى الله عنها أن زيارة البقيع كانت عادة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا لفظها « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما كانت ليلتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول : السَّلامُ عليكُمْ دارَ قَوْمٍ مُؤْمِنينَ، وأتاكُمْ ما تُوعَدُونَ، غَداً مُؤَجَّلُونَ وإنَّا إنْ شاءَ اللهُ بِكُمْ لاحِقُونَ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأهْلِ بَقِيعِ الغَرْقَدِ ».

وأما زيارة المؤمنين للقبور فى عهده صلى الله عليه وسلم وتعليمه لهم كيف يزورون فاسمع شيئا مما يدل على ذلك . روى البخارى ومسلم حديث المرأة التى كانت تزور قبر صبيّ لها وتبكى ، فلم ينهها صلى الله عليه وسلم عن زيارتها ، وإنما قال لها « اتَّقِ اللهَ واصْبِرِى » وقال لها « الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولى » وروى مسلم « أنه صلى الله عليه وسلم كان يعلم الصحابة إذا خرجوا إلى المقابر فكان قائلهم يقول : السَّلامُ عليكُمْ أهْلَ الدِّيارِ مِنَ المُؤْمِنينَ والمُسْلِمِينَ والمُسْلِماتِ ، وإنَّا إن شاءَ اللهُ بِكُمْ لَلاحِقُونَ ، أسألُ اللهَ لَنا ولَكُمُ العافِيَةَ » .

نعم كان منهيا عن زيارة القبور فى صدر الإسلام والناس قريبو عهد بجاهلية ، ثم نسخ ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم وبفعله .

أما فعله فقد سمعته . وأما قوله فهو « كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيارَةِ القُبُورِ فَزُورُوها » رواه مسلم من حديث، ورواه غيره .

وأنا لاأدرى ماذا يحصل للناس من الضرر فى زيارة القبور حتى يمنعها أولئك الناس ذلك المنع القاطع ، والذى أعلمه عن تلك الزيارة أنها الدواء الذى لانظير له للقلوب التى قست ثم قست ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيارَةِ القُبُورِ فَزُورُوها ، فَإِنَّها تُرِقُّ القَلْبَ وَتُدْمِعُ العَيْنَ وَتُذَكِّرُ بالآخِرَةِ فَزُورُوها وَلا تَقُولُوا هُجْرًا » رواه البيهقى . وقوله صلى الله عليه وسلم « ولا تقولوا هجرا » نهى عن آفة من آفات زيارة القبور التى من أجلها لاتجوز الزيارة ، وهذه الآفة أكثر ما تكون من النساء ، فان الواحدة منهن إذا رأت قبر ابنها أو أبيها أو أخيها أو زوجها طيب المعاشرة هاجت عاطفتها ـ وعواطف النساء رقيقة ـ وحينئذ يكون منها من أنواع الجزع ما تهتز له السماوات . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَعَنَ اللهُ زَوّاراتِ القُبُورِ » رواه أحمد وابن ماجه والحاكم .

ومن آفات زيارة القبور أن الناس يخرجون إليها فى بعض الجهات بحالة تنافى الإنسانية ، فيختلط الرجال بالنساء فى الطرق وعلى المقابر اختلاطا لايرضاه عقل ولا دين ، وعلى المقابر يأكلون ويشربون ويتبرزون وينامون ويفعلون ما يفعلون مما يستحى القلم عن تسطيره . فالزيارات التى هذا حالها لاتجوز لهذا العارض ، لالأنها زيارات . وعلى مثل هذه الزيارات يحمل قوله صلى الله عليه وسلم « لأنْ يَجْلِسَ أحَدُكُمْ عَلى جَمْرَةٍ فتَحرِقَ ثِيابَهُ فتَخْلُصُ إلى جِلْدِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أنْ يَجْلِسَ عَلى قَبْرٍ » رواه مسلم .

وإن لم نفهم لزم أن رسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما كانوا عاملين بمثل ذلك الحديث الناهى عن الجلوس على القبور ، وذلك أن سيدنا مالكا رضى الله عنه روى فى موطئه « أن سيدنا عليا رضى الله عنه

وكرّم وجهه كان يتوسد القبور ويضطجع عليها » ومعروف من هو سيدنا علي" علما ودينا . وروى البخاري عن سيدنا خارجة بن زيد أنه قال « رأيتني ونحن شبان في زمن عثمان رضي الله عنه وإن أشدنا وثبة الذي يثب قبر عثمان بن مظعون حتى يجاوزه » وقال عثمان بن حكيم « أخذ بيدي خارجة فأجلسني على قبر وأخبرني عن عمه يزيد بن ثابت أنه قال : إنما كره ذلك — الجلوس على القبر — لمن أحدث عليه » . وقال نافع « كان ابن عمر رضي الله عنه يجلس على القبور » روى كل هذا البخاري ، ومنه يعلم القارئ أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يفهمون أن النهي عن الجلوس على القبور كان مقيدا بجلوس خاص ، بل ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه جلس بنفسه على القبور ، فقد روى سيدنا أنس رضي الله عنه أنه قال « شهدنا دفن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس على القبر » الحديث . وروى الطبراني في الكبير والأوسط « جلوس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبر سعد بن معاذ يوم دفن » وروى الطحاوي بسند صحيح عن سيدنا زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال « إنما نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الجلوس على القبور لحدث غائط أو بول »

وبعد ، فإنا نقول لأولئك الذين يمنعون زيارة القبور : نرجو كم أن تقرءوا هذا فقط لتروا بأنفسكم أنكم في واد ودين الاسلام في واد آخر ، ولعلكم إذا رأيتموه أقلعتم عما أنتم عليه ، ولا نظن" بكم إلا ذلك بعد أن تروا أن رسولنا إمام الجميع صلى الله عليه وسلم زار القبور ، وكانت زيارتها عادته ، وزارها أصحابه في حياته ، وهو بنفسه علمهم كيف يزورونها وتبعهم على ذلك كل هذه الأمة من عهدهم لليوم ، وهذه كتب العلماء حنفية ومالكية وشافعية وحنبلية وغيرهم بها بيان تلك الزيارة ، وكذلك

دواوين السنة النبوية مفعمة ببيان جوازها والندب إليها وكيف تكون . ومن رأى كل هذا ثم أنكره ولم يعجبه فلا حيلة لنا فيه وأمره إلى ربه، والله تعالى أعلم .

هل في القبر عذاب ونعيم

أنكر عذاب القبر ونعيمه أناس ينتسبون إلى الإسلام ، وقد برهنوا بانكارهم هذا على جهل فاحش بدينهم ، فان الكتاب والسنة ناطقان بما يكون في القبر من نعيم وعذاب نطقا لايجرؤ على إنكاره مسلم ، وإليك البيان :

قال ربنا عز وجل في كتابه (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ) أفهمتنا هذه الآية أن فرعون وقومه يعرضون على النار غدوا وعشيا . وهذا العرض لايخلو إما أن يكون في الدنيا أو القبر أو في الآخرة . أما في الدنيا فلم يكن ذلك قطعا . وأما في الآخرة فالآية تقول بصراحة تبين حالهم هناك (ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) فإذن هذا العرض ليس في الآخرة ، وإذا انتفى أن يكون في الدنيا والآخرة تعين أن يكون في القبر ، هذا دليل الكتاب على ما نقول .

وأما السنة الصحيحة فورد منها شيء كثير يدل على ذلك المعنى ، فقد روى الشيخان البخاري ومسلم والنسائي « أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم خرج بعد ما غربت الشمس فسمع صوتا فقال : يَهُودُ تُعَذَّبُ في قَبْرِها » وروى النسائي ومسلم واللفظ له أنه صلى الله عليه وسلم قال « لَوْلاَ أنْ لاتَدافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أنْ يُسْمِعَكُمْ عَذَابَ القَبْرِ » وروى الشيخان والترمذى والنسائي وأبو داود أنه صلى الله عليه وسلم « مر على قبرين فقال : إنَّهُما لَيُعَذَّبانِ ، وَمَا

يُعَذَّبانِ فى كَبِيرٍ – أى فى نظر الناس – أمَّا أحَدُهُمَا فكانَ يَمْشِي بالنَّمِيمَةِ ، وأمَّا الآخَرُ فَكانَ لا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ ، ثم دعا بعَسِيبٍ رطب فشقه اثنين ، فغرس على هذا واحدا ، وعلى هذا واحدا ثم قال : لعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مالم يَيْبَسَا » وروى الترمذى عن هانئ مولى سيدنا عثمان رضى الله عنهما أن سيدنا عثمان رضى الله عنه كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته ، قيل له : أتذكر الجنة والنار ولا تبكى ، وتذكر القبر فتبكى ، فقال : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « القَبْرُ أوَّلُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنازِلِ الآخِرَةِ فانْ نَجا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أيْسَرُ مِنْهُ ، وإنْ لمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أشَدُّ مِنْهُ » قال وسمعته صلى الله عليه وسلم يقول « ما رأيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إلاَّ والقَبْرُ أفْظَعُ مِنْهُ » قال هانئ وسمعته ينشد على قبر :

فان تنج منها تنج من ذى عظيمة ‏ ‏ ‏ وإلا فانى لا إخالك ناجيا

وروى البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى أنه صلى الله عليه وسلم قال « إنَّ العَبْدَ إذَا وُضِعَ فى قَبْرِهِ وتَوَلَّى عَنْهُ أصْحابُهُ إنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ قَرْعِ نِعالِهِمْ ، إذَا انْصَرَفُوا عَنْهُ أتاهُ مَلَكانِ فَيُقْعِدانِهِ ، فَيَقُولانِ لَهُ : ما كُنْتَ تَقُولُ فى هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ ؟ فأمَّا المؤمنُ فَيَقُولُ : أشْهَدُ أنَّهُ عَبْدُ الله ورَسُولُهُ ، فَيُقالُ لَهُ : انْظُرْ إلى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا فى الجَنَّةِ ، فَيَراهُمَا جَمِيعاً . وأمَّا الكافِرُ والمُنافِقُ فَيَقُولُ : لاأدْرِى كُنْتُ أقُولُ ما يَقُولُ النَّاسُ فيه ، فَيُقالُ : لادَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ ، ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أذُنَيْهِ فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إلاَّ الثَّقَلَيْنِ » وهذا الحديث يثبت شيئا آخر غير مقصود الترجمة وهو سؤال القبر .

وورد في أحاديث أخرى السؤال عن ربنا عز وجل وديننا زيادة عن السؤال عن نبينا ، وهذا السؤال هو فتنة القبر الذى فيه يقول الله تعالى (يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ) وفى هذا القدر كفاية وفوق الكفاية للمسلم الذى يريد الوصول إلى الحق من طريقه والله الموفق .

هل تجوز زيارة نبينا صلى الله عليه وسلم

لعل القارئ الكريم يفزع لرؤيته هذه الترجمة ويقول : ماذا جرى حتى تفرد زيارته صلى الله عليه وسلم بترجمة خاصة ، وأنت فيما سبق برهنت بالأدلة القاطعة على أن زيارة أىّ منتقل من هذه الدار جائزة بل مندوب إليها ومرغب فيها ؟ هل هناك قيد يخرجه صلى الله عليه وسلم من ذلك الإطلاق ويجعل زيارته وحده غير مندوب إليها ولا مرغب فيها ؟ .

فأقول لك : رويدا يا أخى واعذرنى فى إفراد هذا البحث بترجمة خاصة ، فان أولئك الناس الذين عنهم حكينا فيما سبق منع زيارة القبور منعوا زيارته صلى الله عليه وسلم ، واختصوها فى المنع بتشديد شديد جدا ، جعلهم يستبيحون مقاتلة زائريه صلى الله عليه وسلم ، وصنفوا فى هذه المسألة بعينها مصنفات وأصدروا فتاوى تفهم أهل الإسلام أن شد الرحال إلى زيارته صلى الله عليه وسلم لايجوز ، أما لو شد المؤمن رحله إلى زيارة مسجده صلى الله عليه وسلم للصلاة فيه فذلك جائز ، ودليلهم الوحيد الذى عذبوه فى كل مصنفاتهم وفتاويهم قوله صلى الله عليه وسلم « لاتُشَدُّ الرِّحَالُ إلاَّ إلى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ : المَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَمَسْجِدِى هَذَا ، والمَسْجِدِ الأَقْصَى » رواه الشيخان البخارى ومسلم وغيرهما ، وإنى أعجب ثم

أعجب أن يفهم ذو عقل منع زيارته صلى الله عليه وسلم من هذا الحديث مع فهم جواز شد الرحال إلى المدينة المنورة بأنواره صلى الله عليه وسلم لأجل الصلاة فى مسجده صلى الله عليه وسلم ، وإنما عجبت ثم عجبت من ذلك الفهم ، لأن المدينة المنورة بأنواره صلى الله عليه وسلم ما كان لها أى قيمة بين البلاد قبل هجرته صلى الله عليه وسلم إليها . وهذا المسجد الكريم مسجده صلى الله عليه وسلم لولا إضافته إليه عليه الصلاة والسلام لكان ككل المساجد لافضل له على أى مسجد من مساجد الدنيا . فالمسجد إنما عظم هذه العظمة وصارت الصلاة فيه بألف صلاة فى سواه من المساجد ، لأنه المسجد الذى اختاره صلى الله عليه وسلم وبناه . والذى كان يشرفه بالصلاة فيه . والذى كانت تهمى فيه الرحمات والبركات لحظوته بحلول شخصه الكريم فيه صلى الله عليه وسلم .

وإذا كان الأمر هكذا ، فهل من المعقول أن يقال إن هذا المسجد له بركات تعود على المسافر إليه ، فلهذا يجوز شد الرحال إليه ، وأما الرسول صلى الله عليه وسلم الذى ما عظم المسجد إلا بنسبته إليه فلا بركة فيه تعود إلى زائريه ، وإذن لايجوز أن تشد الرحال إلى زيارته إن هذا إنما يقوله المجانين الذين لايعون ما يقولون أو يقوله عدو الإسلام ورسول الإسلام . وأما المؤمن الذى له حظ من العقل فلا يمكن أن يخطر بباله هذا المعنى السخيف . والحديث الذى يستند إليه أولئك الذين يريدون أن يحولوا بينه صلى الله عليه وسلم وبين أمته فى ناحية ، وما يذهبون إليه فى ناحية أخرى ، فانه يتكلم عن المساجد خاصة . يقول للناس : أنتم عقلاء يجب أن تصان أعمالكم عن العبث الذى لافائدة فيه ، فأوصيكم أن لاتسافروا وتتحملوا متاعب السفر ومشاقه من أجل أن تصلوا بمسجد من مساجد الدنيا فاهمين أن له فضلا على غيره ، لاتفعلوا ذلك فانكم تتعبون فى سفركم بلا فائدة تعود عليكم ، لأن

المساجد كلها فى مستوى واحد لافضل لبعضها على بعض ، لكن لاتفهموا أن ذلك على عمومه ، بل فى الدنيا مساجد ثلاثة لها ميزة على غيرها من المساجد : المسجد الحرام بمكة ، والمسجد النبوى بالمدينة المنورة ، والمسجد الأقصى بالشام . هذه المساجد وحدها لو شددتم الرحال إليها لايضيع تعبكم بل يعود عليكم من الثواب بمضاعفة ثواب الصلاة فيها مايوازى تعبكم وزيادة .

وإنما امتازت هذه المساجد الثلاثة ، لأن المسجد الحرام أمر ببنائه ، فبناه سيدنا إبراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم ، وكان يساعده فى بنائه سيدنا إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، ثم هو بجوار بيت الله الحرام قبلة العالمين ، فلذلك البناء وهذا الجوار العالى نال من الشرف ما جعل الصلاة فيه بمائة ألف صلاة فيما سواه من المساجد .

وأما مسجده صلى الله عليه وسلم فعظمته لما قدمنا ، ثم هو بجوار بيته صلى الله عليه وسلم ، ولا يشك مؤمن فى أن بيته صلى الله عليه وسلم مهما علا شرفه وعظم قدره لايصل أبدا إلى شرف بيت رب العالمين ، لهذا كانت الصلاة فى مسجده صلى الله عليه وسلم بألف صلاة فيما سواه ، ليشير التفاوت فى عظم الثواب إلى التفاوت فى شرف الجوار ؛

ولأن المسجد الأقصى بناه سيدنا يعقوب صلى الله عليه وسلم بعد أن بنى المسجد الحرام جده سيدنا إبراهيم صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة كما جاء فى حديث ورد أن الذى ابتدأ بناءه سيدنا داود عليه الصلاة والسلام وأتمه سيدنا سليمان صلى الله عليه وسلم ، وهو غير معقول بالنسبة للمسافة التى بينهما ، والحديث بها متفق عليه ، ويمكن أن يكون الذى كان منهما صلى الله عليهما وسلم تجديدا ، ثم كان هذا المسجد مصلى أنبياء بنى إسرائيل عليهم الصلاة والسلام ، وكان بجوار بيوتهم وبجوار روضاتهم التى هم بها بعد انتقالهم إلى الرفيق الأعلى عليهم الصلاة والسلام ، ولا يخفى أن جوار الأنبياء وإن كان رفيع القدر عظيما ، لايصل

إلى درجة كرم جواره صلى الله عليه وسلم ، لهذا كانت الصلاة في المسجد الأقصى بخمسمائة صلاة فيما سواه من المساجد كما ورد هذا التحديد في الكل بحديث رواه البيهقي في شعب الإيمان .

هذا ما يستطيع الإنسان أن يفهمه من السر في التفاوت بين هذه المساجد الثلاثة وبين غيرها ، وفي تفاوت الثواب بينها هي .

ولنعد إلى الكلام مع المانعين زيارته صلى الله عليه وسلم فنقول : لو فهمنا أن النهي عن شد الرحال في الحديث المذكور عام في كل سفر الا السفر إلى هذه المساجد ، للزم أنه صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي نطق بهذا الحديث وعليه أنزل ، ما كان فاهما له أو كان يفهمه ولكنه ما عمل بمقتضاه وبقي غير معمول به أو غير مفهوم حتى جاء هؤلاء وفهموه وعملوا به ، ذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان يسافر للجهاد ويأمر بالسفر له ، وبالسفر لتعليم العلم وتبليغ الشريعة ، وبالسفر للقضاء بين الناس وإقامة العدل بينهم ، وهي أسفار لم تكن إلى هذه المساجد بل إلى غيرها . وكان أصحابه رضي الله عنهم يسافرون للتجارة وإلى ما يهمهم من شئون الدنيا في أي ناحية من نواحي الأرض ، وهو صلى الله عليه وسلم يعلم ذلك ويقره ولا ينكر عليه ، بل شد الرحال إليه صلى الله عليه وسلم الذي هو موضوع النزاع كان في حياته صلى الله عليه وسلم ، فان الوفود كانت تفد إليه صلى الله عليه وسلم من أنحاء الأرض مسافرين لم يبعثهم على ذلك إلا حب لقائه صلى الله عليه وسلم وزيارته والتبرك بالوجود في حضرته الشريفة ، وكان صلى الله عليه وسلم يرى هذا ويقره بل ويحرض عليه بما كان يثيب به تلك الوفود من الجوائز التي كان يمنحهم بها .

وهو الآن في روضته الشريفة مثله وهو حيٌّ تماما كما برهنا على ذلك سابقا ، فزيارته الآن لا تختلف أبدا عن زيارته قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى ، ونبه هو صلى الله عليه وسلم على ذلك في قوله « مَنْ حَجَّ

فَزَارَ قَبْرِي بَعْدَ وَفَاتِي فَكَأَنَّمَا زَارَنِي فِي حَيَاتِي » رواه الدارقطني في سننه والبيهقي وابن عساكر والطبراني في معجميه الكبير والأوسط .

وليس ما تقدم هو الذى يلزم على فهمنا ذلك الحديث كما يفهمه أولئك الناس ، بل يلزم كذلك أن نحبس أنفسنا في الدوائر التي نحن مقيمون بها حبسا لامخرج منه أبدا ، لأنا إن خرجنا منها فقد سافرنا إلى غير المساجد الثلاثة ، ويلزم كذلك أن لايجوز لنا السير في الأرض للاعتبار والعظة ، وقد أمرنا ربنا عز وجل بهذا السير في كتابه وحرضنا عليه في غير آية من كتابه ، فهل يتناقض ربنا العليم الخبير فيأمر بالسير في الأرض بكتابه ، وينهانا عنه في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؟ .

ويلزم أيضا أن لانسافر لصلة أرحامنا إذا كانوا بجهات بعيدة ، وقد أمرنا ربنا بهذه الصلة وشدد علينا فيها ، ووعد من يقوم بها أن يصله ، وتوعد من أخلّ بها أن يقطعه .

ويلزم كذلك أن يكون علماء الإسلام من أول هذه الأمة لليوم في خطأ عظيم حيث إنهم يعقدون في كتبهم الدينية الأبواب والفصول يذكرون فيها زيارته صلى الله عليه وسلم وما يتعلق بها من ترغيب فيها ومن آداب ينبغي أن تراعى في القيام بها ، وهل يسمح عاقل أن يلتزم كل تلك اللوازم الشنيعة من أجل كلمة فلتت من رجل عاش في سخط الأمة ومات في سخطها مبعدا بالسجن عن الناس لئلا يطير شرره عليهم ، ووصل سخط علماء عصره عليه إلى درجة أن ضللوه وفسقوه وبدّعوه ، وحكم عليه بعضهم بالكفر والخروج من الملة الإسلامية ، بل كفر بعضهم من يطلق عليه لقب شيخ الإسلام ، وألف هذا في ذلك ما أبان به وجهة نظره ، فهل رجل ذلك حاله يصح أن يلتفت إليه فضلا عن أن يحترم إلى درجة أن يقلد فيما يذهب إليه .

ولو رأى القارئ ما أثبته عليه علماء عصره من الكذب والتدليس في النقول حتى الأحاديث ليؤيد ما يريد أن يذهب إليه . ولو رأى أن

بعضهم أثبت عليه عقائد تتعلق بخالق السماوات والأرض فى غاية الشناعة لفرّ هاربا واضعا يده على رأسه مستعيذا بالله تعالى من غضبه وانتقامه .

هذا هو الرجل الذى افتتن به الناس اليوم لحد أنهم عادوا أهل الإسلام من أجله ، ونبذوا مذاهب أئمة الإسلام وهداة الخلق لمذهبه .

وإنى بما أحمل من لقب عالم إسلامى آمر وأشدد فى الأمر كل مؤمن أن يشد رحله إلى زيارته صلى الله عليه وسلم ،وله على ذلك ما قاله هو عليه الصلاة والسلام ، فقد قال صلى الله عليه وسلم « مَنْ زَارَ قَبْرِى وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِى » رواه الدارقطنى والبيهقى وغيرهما . وقال « مَنْ جاءَنِى زَائِرا لا يُعْمِلُهُ حاجَةٌ إلاَّ زِيارتِى كانَ حقًّا عَلَىَّ أنْ أكُونَ لَهُ شَفِيعاً يَوْمَ القِيامَةِ » رواه الطبرانى فى معجمه الكبير والدارقطنى فى أماليه وابن المقرى فى معجمه وغيرهم . وقال « مَنْ زَارَنِى مُتَعَمِّداً كانَ فى جِوَارِى يَوْمَ القِيامَةِ » رواه العقيلى وغيره . وهو شىء لايسمعه مؤمن ويهدأ له بال حتى يتشرف بالمثول بين يديه صلى الله عليه وسلم . وهل بى جنون حتى أصدر أمرى للمؤمنين أن لايزوروا رسولهم وولىّ نعمتهم الذى له فى عنق كل مؤمن منة محال أن يقوم بشكرها؟ . ومن يستطيع أن يكافئ من أخرجه من نار أبدية إلى نعيم أبدى . إن من يأمر الناس أن لايزوروا سيد الوجود وصفوة الخلق لايدرى ماذا يفعل ، إنه يحول بين عباد الله وبين رحمة الله فانه صلى الله عليه وسلم رحمة الله للعالمين . فليعرف ذلك أولئك المانعون ليعلموا فى أىّ موقف هم ؟ .

وإنى أحب أن يعلم القارئ المؤمن أن الإجماع على طلب زيارته صلى الله عليه وسلم طلبا أكيدا لم يخالف فى ذلك لاعالم ولا جاهل ولا أسود ولا أبيض ولا رجل ولا امرأة ، بل صرح بعض هداة الأمة أن هذه الزيارة واجبة فرارا من الجفاء الذى رمى به صلى الله عليه وسلم

من لم يزره ، فانه قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه ابن النجار « مَنْ لم يَزُرْنى فَقَدْ جَفَانى » وقال « مامِنْ أحَدٍ مِنْ أُمَّتِى لَهُ سَعَةٌ ثمّ لم يَزُرْنى فَلَيْسَ لَهُ عُذْرٌ » وهذا شىء يخيف أهل الإيمان .

نعم لم ير الناس ولم يسمعوا من عهده صلى الله عليه وسلم لهذا العهد الذى نحن فيه الآن أحدا يخالف فى طلب هذه الزيارة الكريمة ، إلا هذا الرجل الذى نشير إليه ، ومن اغترّ به من عصره لليوم وهم أفراد يُعدّون على الأصابع بين أمة بأسرها تعد بمئات الملايين عندهم ، هذه الزيارة بعد الحج الذى هو أحد أركان الإسلام ، وليفهم القارئ معنى هذا اللفظ الضخم ـ بعد الحج ـ ولو كان لهؤلاء المانعين عقل وروية لسكتوا عن الجهر بهذه الشنيعة ، وهم يرون عباد الله تعالى بالآلاف والملايين تبعثهم الأشواق المقلقة إليه صلى الله عليه وسلم ، فيتركون أوطانهم وأحبابهم وأموالهم يتابعون المسير ليلا ونهارا يبتهلون إلى ربهم أن يطيل آجالهم حتى يصلوا إليه صلى الله عليه وسلم ، فاذا وصلوا فلا تسأل عن مبلغ ما يقوم بهم من مسرّات ثم مسرّات ، فان ذلك شىء إنما يعلمه العليم الخبير .

ومن قرأ عبارات العشاق لذلك المقام الكريم عرف أن المؤمنين فى عالمَ وهؤلاء المانعين فى عالمَ آخر . ولو دنا القارئ ممن تشرف بذلك المقام فى طريق إيابه إلى بلاده حيث يلقى الأحباب والأبناء والأوطان والأموال ، لسمع أنات تتلوها أنات ، وزفرات تتصاعد إثر زفرات حنينا إلى الرجوع ثم الرجوع إلى ذلك المقام الرفيع مقام أجلّ عبد رآه هذا الوجود ، مقام الشفيع المشفع ، أحب خلق الله إلى الله ، وأوجه أهل الوجاهة عنده تعالى ، صلى الله عليه وسلم ورزقنا زيارته مرات ثم مرات فى عفو وعافية ، اللهم آمين .

تعالى ربنا أن يكون جسما

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) ذلك قوله تعالى عن نفسه فى كتابه الكريم ، وهو نفى عامّ ينطق فى صراحة ليس بعدها صراحة أنه تعالى لايشبهه شيء ؛ ولا يشبه هو تعالى شيئا من هذا العالمَ علويه وسفليه ، هكذا وصف ربنا نفسه ؛ وهو وحده الذى يعلم حقيقة نفسه ، فهو وحده الذى يعلم كيف يصفها ، وليس لأحد كائنا من كان أن يستقل بوصفه ـ علت كلمته ـ ولو كان نبيّا مرسلا أو ملكا مقربا ، فان بيننا ـ معشر الخلق ـ وبينه عز وجل التباين التام ، هو قديم ونحن حادثون ، وهو خالق ونحن مخلوقون ؛ فلو كان مثلنا لكان مخلوقا مثلنا أو كنا خالقين مثله وهذا باطل . إذن لاصلة بيننا وبينه تعالى يمكن معها لأى مخلوق أن يحيط علما به عز وجل حتى يصفه بأى وصف . إذن هو عز وجل منزه عن المادة وكل خصائص المادة . ومن هنا أخذ القول المعروف « كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك » . إذن العقول معقولة عقلا تاما عن أن تحوم حول هذا الحمى المقدس بأكثر مما وصف تعالى به نفسه ، الذى منه قوله تعالى (ليس كمثله شيء) هذا أصل قاطع لانزاع فيه يرجع إليه كلّ نصّ جاء فى شريعتنا يوهم ظاهره خلاف ذلك .

إذن للاستواء فى قوله تعالى (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) معنى يناسب ربنا عز وجل خلاف ما يوهمه ظاهر اللفظ ، وهو مما لاخلاف فيه بين أئمة الهدى من أول هذه الأمة لليوم .

وهاك أمثلة تفهم منها كيف يقول فى هذا أولئك الهداة رضى الله عنهم .

عن أمنا الجليلة السيدة أم سلمة رضى الله عنها أنها قالت فى هذا الاستواء : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإقرار به إيمان ، والجحود به كفر . رواه ابن مردويه واللالكائى .

وقال فيه سيدنا ربيعة بن عبد الرحمن رضى الله عنه : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق . رواه اللالكائى .

وقال فيه تلميذه الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه : استوى كما وصف نفسه ، ولا يقال له كيف ، وكيف عنه مرفوع . وقال للسائل عن ذلك : وأنت رجل سوء صاحب بدعة أخرجوه فأخرج الرجل . رواه البيهقى .

وإذا كان سيدنا مالك رضى الله عنه يرى السائل عن هذا مبتدعا ولا يتردد فى الحكم على مجرد سؤاله هذا بأنه بدعة من أجلها يهان الرجل ويطرد من مجلس العلم الذى لا يطرد منه مسترشد ؟

فماذا يظن القارئ به رضى الله عنه إذا رأى قوما لا يسألون فقط عن كيفية هذا الاستواء ؟ بل يتهجمون بكل جرأة على شرحها وبيان معناها ، ليس ذلك لأنفسهم خاصة فكان يهون الأمر ، بل يتجاوزونها إلى غيرهم ، ولا يقتصرون فى بيان ذلك الكيف على ألسنتهم تشرح ذلك لكل من يظفرون به من الأمة ، بل تعدّوا ذلك إلى بيانه بأقلامهم ليبقى بعدهم ما بقيت الدنيا ، فكتبوا كتبا ملئوا الأرض بها كلاما ، وعينوا فيها هذا الكيف كل التعيين ، فقالوا : إن ربنا عز وجل له العلوّ من جميع الوجوه ، فعينوا له تعالى جهة ، والذى له جهة له مكان قطعا وعينوا هذه الجهة وذلك المكان ، فقالوا إنه على العرش بذاته . ولئلا يخطر على البال معنى يؤول هذا تأويلا يليق به عز وجل قالوا : إن العرش يئط ويصوت حقيقة به تعالى كما يئط ويصوت الرحل تحت الراكب المستعجل . ولم يكفهم كل هذا فى بيان غرضهم بل جنوا وقالوا : إن ربنا تعالى يدنى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ويقعده بجانبه على العرش ، إلى هذا الحد وصل هؤلاء الناس فى شرح

كيفية هذا الاستواء الذى اتفق أئمة الهدى أنه غير معقول ، وكيف يعقل هذا الاستواء مع قوله تعالى (ليس كمثله شيء) .

ولو أنا نزلنا أنفسنا من هؤلاء الناس منزلة سيدنا مالك من سائله ما وجدنا كلمة تؤدى ما فى نفوسنا من ناحيتهم ، ولولا أنا بصدد ردّ مقالتهم هذه ما استجزنا لأنفسنا أن نحكيها وصفا لربنا وولىّ نعمتنا فى الدنيا والآخرة ، ولكنه مقام البيان يحرج إلى مثل هذه المضايق .

ولقد ألف أحد أئمة هؤلاء الناس قصيدة طويلة عريضة تعدّ بالآلاف أحد عناوينها « فصل فى الرد على الجهمية المعطلة القائلين بأنه ليس على العرش إله يعبد ، ولا فوق السماوات إله يركع له ويسجد »

هذا العنوان فقط من التفت إليه فهم منه أن الرجل فى غضب شديد على معتقدى تنزيه الله تعالى عن حلوله على العرش بذاته ، ولا يرى إزاء هذا إلا أن يرد عليهم ويفهمهم أن الخالق المعبود فوق العرش بذاته ، ويأبى أن يذكرهم إلا بوصفين وصف الجهمية ووصف المعطلة .

أما الجهمية فنسبة إلى جهم بن صفوان الذى قال عنه هذا الرجل فى نونيته هـذه ما لا يقال ولا يعاد ، وهو تلميذ الجعد بن درهم الذى ضحى به أحد الولاة فى آخر دولة بنى أمية . خطب هذا الوالى يوم عيد أكبر ، وبعد أن انتهى من خطبته قال : أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، وإنى مضحٍّ بالجعد بن درهم ، ثم نزل فذبحه متقربا إلى الله تعالى بتطهير الأرض منه .

وأما المعطلة فيعنى بهم من لا يوافقونه فى عقيدة أن ربنا جسم قاعد على العرش بذاته ، فعطلوه باعتقادهم هذا من هذا الوصف مع أنه موصوف به كما يزعمون ، هذا حكم هذا الرجل على مخالفيه فى طالعة عنوان واحد من عناوينه الكثيرة . ومعنى هذا أن الأمة بأسرها جهمية ومعطلة فى هذه العقيدة ، مع أنها عقيدة المسلمين فى كل عصر

بل غلا هؤلاء الناس ثم غلوا فى حكمهم على من خالفهم حتى حكموا عليهم بالشرك ، بل جعلوهم شرا من المشركين . ولسنا نقول هذا دعاوى مجردة ، بل نقولها معها أدلتها التى لاتقبل طعنا وكلها من نونية هذا الرجل ، واسمع ما يقول :

والفوق وصف ثابت بالذات من　　كل الوجوه لفاطر الأكوان
لكن نفاة الفوق ما وافوا به　　جحدوا كمال الفوق للديان
بل فسروه بأنّ قدر الله أعـ　　ـلى لابفوق الذات للرحمن

واسمع :

إن العلوّ له بمطلقه على التـ　　ـعميم والإطلاق بالبرهان
وله العلوّ من الوجوه جميعها　　ذاتا وقهرا مع علو الشان

واسمع :

الله فوق العرش فوق سمائه　　سبحان ذى الملكوت والسلطان
ولعرشه منـــه أطيط مثل ما　　قد أط رحل الراكب العجلان

واسمع :

بل عطلوا منه السماوات العلى　　والعرش أخلوه من الرحمن

واسمع ما يقوله على لسان المنزه يلوم المجسم على اعتقاده ذلك :

وزعمت أن محمدا يوم اللقا　　يدنيه رب العرش بالرضوان
حتى يرى المختار حقا قاعدا　　معه على العرش الرفيع الشان
وزعمت أن لعرشه أطّابه　　كالرحل أط براكب عجلان

واسمع ما استحسنه فى كتاب له آخر وأنشده ، وهو :

فلا تنكروا أنه قاعد　　ولا تنكروا أنه يقعده

أى اعترفوا أيها الناس واعتقدوا اعتقادا لايشوبه إنكار أن ربنا قاعد على العرش وأنه يقعد نبيه صلى الله عليه وسلم بجانبه يوم القيامة .

واسمع :

واعلم بأن الشرك والتعطيل مذ　　كانا هما لاشك مصطحبان

أبدا فكل معطل هو مشرك حتما وهذا واضح التبيان

واسمع ما هو أشد :

لكن أخو التعطيل شر من أخي الـ إشراك بالمعقـــول والبرهان

واسمع ما يتضمن أن أبا حنيفة رضى الله عنه يوافقه على الحكم بالكفر على كل من ينزه ربه عن أن يكون جسما قاعدا على العرش ، قال :

وكذلك النعمان قال وبعده يعقوب والألفاظ للنعمان

من لم يقر بعرشـــه سبحانه فوق السماء وفوق كل مكان

ويقر أن الله فوق العرش لا يخفى عليـــه هواجس الأذهان

فهو الذى لاشك فى تكفيره لله دَرّك من إمام زمان

هذا الذى فى الفقه الاكبر عندهم وله شروح عـــدة لبيان

ولقد عجبت وطال عجبي لما رأيت هذا مسندا إلى هذا الإمام الأعظم فى كتابه الفقه الأكبر ، وراجعت هذا الكتاب من أوله إلى آخره فلم أر فيه إشارة إلى هذا القول ، والذى وجدته فيه يناقض هذا النقل كل المناقضة . وهذا ما يقوله رضى الله عنه فى ذلك الكتاب عن ربنا عز وجل : لاحدّ له ولا ضد له ولا ندّ له ولا مثل له ، له يد ووجه ونفس ، فما ذكر فى القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات بلا كيف ، ولا يقال إن يده قدرته أو نعمته ، لأن فيه إبطال الصفة ، وهو قول أهل القدر والاعتزال ، ولكن يده صفته بلا كيف ، وغضبه ورضاه صفتان من صفاته بلا كيف . هذا كلام الإمام فى هذا المقام ، وهو ناطق بأنه رضى الله عنه كبقية السلف فى الإيمان بالمتشابه دون تعيين كيف ، بل أول كلمة من هذا الكلام تردّ على هذا الرجل أكبر رد ، فانه رضى الله عنه يقول : لاحد له . وهذا الرجل يحدده تعالى ثم يحدده . وأين هذا من هذا ؟ فهذا الرجل رغم دعواه الإمامة والاجتهاد المطلق ، يروج بدعته هذه بالكذب على الإمام أبي حنيفة رضى الله عنه ، وهذا الفقه الأكبر بين أيدينا فليراجعه من شاء .

وغير غريب أن يكذب هذا الرجل فانه مبتدع داعية إلى بدعته غال فيها كل الغلو ، وكل مبتدع هذا شأنه لايتوقى الكذب لينصر بدعته كما قرره العلماء رضى الله عنهم .

تركت متن الفقه الأكبر الذى أحالنا عليه ، وأخذت أقلب فى صحائف شرحه للعلامة ملا على قارى رحمه الله لعلى أعثر على هذه المقالة ، وبعد تعب كثير عثرت عليها ومعها الحكم عليها بالكذب . ولم أعثر عليها إلا بعد أن انتهى المتن وما يتعلق به ، وجدتها فى أوائل المسائل التى ألحقها الشارح بشرح الكتاب ، وهذا ما عثرت عليه :

قال رحمه الله : وما روى عن أبى مطيع البلخى رحمه الله أنه سأل أبا حنيفة رحمه الله عمن قال : لا أعرف ربى فى السماء هو أم فى الأرض فقال : قد كفر لأن الله تعالى يقول (الرحمن على العرش استوى) وعرشه فوق سبع سماواته . قلت : فان قال إنه على العرش ولا أدرى العرش فى السماء أم فى الأرض ؟ قال : هو كافر لأنه أنكر كونه فى السماء فمن أنكر كونه فى السماء فقد كفر . لأن الله تعالى فى أعلى عليين وهو يدعى من أعلى لا من أسفل انتهى .

والجواب أنه ذكر الشيخ الإمام ابن عبد السلام فى كتابه حل الرموز أنه قال الإمام أبو حنيفة : من قال لاأعرف الله تعالى فى السماء هو أم فى الأرض كفر . لأن هذا القول يوهم أن للحق مكانا ، ومن توهم أن للحق مكانا فهو مشبه انتهى ، ولا شك أن ابن عبد السلام من أجل العلماء وأوثقهم ، فيجب الاعتماد على نقله لا على ما نقله الشارح ـ شارح عقيدة الطحاوى ـ مع أن أبا مطيع رجل وضاع عند أهل الحديث كما صرح به غير واحد ـ هذا كلام العلامة ملا على قارى ـ ومنه يعلم أمور :

الأمر الأول أن تلك المقالة ليست فى الفقه الأكبر ، وإنما نقلها عن أبى حنيفة ناقل ، فيكون إسنادها إلى الفقه الأكبر كذبا يراد به ترويج البدعة .

الأمر الثانى أن هذا الناقل مطعون فيه بأنه وضاع كذاب لايحل الاعتماد عليه فى نقل يبنى عليه حكم فرعى فضلاً عن أصلى ، فالاعتماد عليه ـ وحاله ما ذكر ـ خيانة يريد الرجل بها أن يروّج بدعته .

الأمر الثالث أن هذا النقل صرح إمام ثقة هو ابن عبد السلام بما يكذبه عن أبى حنيفة بالنقل الذى نقله عن هذا الإمام الأعظم رضى الله عنه ، فاعتماد الكذاب وإغفال الثقة خيانة يراد بها تأييد بدعته ، وهى جرائم تكفى واحدة منها فقط لأن تسقط الرجل من عداد العدول العاديين ، لا أقول من عداد العلماء أو أكابر العلماء أو الأئمة المجتهدين . ويعظم الأمر إذا علمنا أن الخيانات الثلاث فى نقل واحد ، وهو مما يرغم الناظر فى كلام هذا الرجل على أن لايثق بنقل واحد ينقله ، فانه لافرق بين نقل ونقل ؛ فاذا ثبتت خيانته فى هذا جاز أن تثبت فى غيره وغيره .

أما الإمام يعقوب الذى هو أبو يوسف رضى الله عنه صاحب الإمام الأعظم رضى الله عنهما ، فلم أعثر له على كلام كهذا بعد البحث الطويل فلعله كذب آخر غير ما تقدم ، بل لا أشك فى أنه كذب يروّج به هذا الرجل بدعته ، ويجعل أبا يوسف كالإمام من أسلافه فى اعتقاد هذا البلاء العظيم .

قد يقول قائل : لعل الرجل لايعلم حال أبى مطيع ولا يكون اطلع على التكذيب ؟ . فأقول : أمجتهد مطلق دونه كل مجتهد كما يدّعى هو وشيخه وكل مفتتن بهما ، ولا يعرف الكذابين الوضاعين ؟ إن ذلك ليس بمعقول ، كما أنه ليس من المعقول أن يطالع الرجل شروح الفقه الأكبر دون أن يعرف مذهب الإمام فى المتشابه ، وذلك فى فاتحة الكتاب فاذا لم يكن رأى تكذيبا لهذا النقل إلا ذلك لكفى . زد على ذلك أن العزّ ابن عبد السلام قبل هذا الرجل بزمن ، وكتبه يتهافت عليها الصغير والكبير لعلمه وفضله ، فعدم اطلاع هذا الرجل على كلام العز لايرضاه هو لنفسه ، ولا يرضاه له محبوه لأنه يكون غفلة عما بين

اليدين ، وهل يرضى لنفسه ذلك إمام دونه كل إمام فى نظر نفسه ونظر المغرورين به ؟ . وإنا نناقش هؤلاء المساكين مناقشة هادئة ننظر هل يرضى العقل بهذه العقيدة ؟ عقيدة أن ربنا عز وجل جالس على العرش بذاته أم لا يرضى ؟ فنقول لهم : ربنا الذى تقولون إنه فوق العرش بذاته ، قديم عندكم أم حادث ؟ فان قلتم حادث انقطع الكلام بيننا وبينكم من أول خطوة ، فان الذى يعتقد حدوث الخالق لا يخاطب والكلام معه ضائع ؛ وإن قلتم إنه قديم كما هو اعتقاد المسلمين وعليه الشرائع الإلهية والعقلاء من أول الدنيا ، انتقلنا إلى سؤال آخر وهو : أقديم هذا العرش الذى فوقه ربنا القديم أم حادث ؟ فان قلتم إنه قديم انتهى الكلام بيننا فى هذه الخطوة الثانية ، فانه لاخلاف بين الأديان كلها فى أن كل ما عدا ربنا حادث بما فى ذلك العرش . وإن قلتم إنه حادث ، قلنا لكم : أكان ربنا القديم على هذا العرش الحادث قبل أن يوجد أم لا ؟ فان قلتم كان ، انتهى الكلام معكم فى هذه الخطوة الثالثة ، فان الذى لم يوجد محال أن يتصور العقل أن يكون محل كون وقرار عليه ، فان ذلك يقتضى أنه موجود والفرض أنه معدوم . وإن قلتم : لا ، انتقلنا إلى سؤال آخر ، وهو : كيف استوى ربنا بذاته على العرش بعد أن وجد هذا العرش ؟ هل تغير ربنا عما كان عليه قبل وجود العرش ، وبهذا التغير صار على العرش ؟ أم لم يتغير ومع ذلك صار على العرش ؟ فان قلتم تغير حتى صار على العرش ، قلنا لكم : معنى هذا أنه تحرك وانتقل عما كان عليه حتى صار على العرش ، ومعروف أن الحركات والسكنات من أخص خواص الأجسام ، فعلى هذا يكون ربنا جسما ، وإذن يكون حادثا ، فان كل جسم حادث بلا نزاع ، وإذن يكون ليس بإله ، والمتفق عليه أنه إله . وإن قلتم : لم يتغير ومع ذلك صار على العرش ، قلنا : هذا ليس بمعقول ، فانه قبل أن يخلق العرش ما كان على العرش قطعا ، فاذا كان على

ما كان عليه بعد وجود العرش لم يتغير ، كان معنى هذا أنه ليس على العرش قطعا كما كان قبل وجود العرش ، وتناقض أن تقولوا إنه على ما كان عليه ومع ذلك صار على العرش . وإلى هنا سدت جميع المنافذ فى وجوهكم وظهر لكم أنكم تقولون فى ربنا ما لايقبله نقل ولا عقل ، فان التزمتم ذلك وتماديتم على مقالتكم هذه بالغنا فى بيان فساد ما أنتم عليه وقلنا لكم : إذا كان ربنا فوق العرش بذاته كما تزعمون ، فقولوا لنا : أبينهما اتصال وتماس كما يتماس الجالس منا بمجلسه أم لا ؟ فان قلتم : لا كان عجيبا ، فان عبارتكم صريحة فى الاتصال والتمكن والمماسة ، فانكم تقولون فوقه بذاته وتقولون قاعد وجالس ويجلس بجانبه غيره ، فاذا لم يكن مع هذا تماس ولا اتصال ولا تمكن ، فلا فوقية حينئذ ولا ذات ولا قعود ولا جلوس ولا إجلاس ، وبهذا تسجلون على أنفسكم أنكم تقولون ما لاتعقلون . وإن قلتم : نعم ، أثبتم على أنفسكم إثباتا قاطعا أنكم تقولون : إنه تعالى جسم ، فانه لايتصل بالمكان ويتمكن من الجلوس عليه إلا الأجسام ، ومن يقول : إن ربنا جسم نقول له ولا نكنى : أنت تؤمن برب غير رب العالمين ، فان رب العالمين يصف نفسه بقوله فى كتابه (ليس كمثله شىء) وإذا كان لامثل له كان غير جسم قطعا . والذى يؤمن برب جسم يقول إن ربه الذى يؤمن به مثل جميع الأجسام العلوية والسفلية ، وأين هذا ممن ليس كمثله شىء .

علم هذا الفريق علما ليس بالظن أن إلهه جسم كالأجسام ، فالتزم أن يثبت له مكانا يحل فيه كسائر الأجسام ، فان محالا أن يكون جسم فى غير محل يحل فيه .

وأما نحن فننزه ربنا عن كل هذا ولا نتردد فى الحكم بأن من يؤمن به يؤمن بغير رب العالمين . والذى نقوله : إن ربنا كان قبل المكان عرش وغيره ، وخلق العرش وغيره من هذا العالم ، وهو بعد الخلق على ما كان عليه منزها عن الجسمية وعن لوازم الجسمية ، فلا مكان

له ، لأنه كان قبل المكان ولا يحتاج إلى المكان . وإلا فكيف كان مستغنيا عنه قبل خلقه .

يا ربنا لك الحمد على حلمك هذا الذى لايتناهى على عبيدك الذين يقولون فيك ما لايناسب قدرك ، نعم لاأحد أصبر منك يا مولاى على أذى تسمعه كما يصفك رسولك صلى الله عليه وسلم ، فان بعض عبيدك يقول : إنك لست بموجود ، وأنت الذى لولاك ما كان موجود ، فانه ليس بمعقول أن توجد الأشياء أنفسها ، أو توجد هى وحدها بلا موجد ، فان إيجادها أنفسها يقتضى أنها موجودة معدومة متقدمة متأخرة فاعلة منفعلة فى آن واحد وهو محال ؛ ووجودها وحدها بلا موجد فيه حدوث بلا محدث وفعل بلا فاعل ، وهو محال كذلك .

ويقول بعض عبيدك : إن لك شركاء لايحصرون كلهم يستحقون العبادة معك ، ولو كان الأمر كما يقولون لأمكن أن يختلفوا فلا يكون من هذا الوجود شىء وهو مشاهد الوجود .

ويقول بعض عبيدك : إن لك أولادا ، وبديع السموات والأرض الذى بهذه القدرة الباهرة ، أىّ حاجة له بالولد الذى إنما يقصد ليكون قوة وعونا للوالد .

ويقول بعض عبيدك : إن لك زوجة ، والزوجة تتخذ للولد ، وقد علم غناك عنه . فمحال أن تكون لك زوجة . ثم الزوجة تكون من وادى زوجها ، فلو كانت لكانت إلها آخر ، فيمكن الاختلاف فيلزم المحال ، وكذلك يقال فى الولد .

ويقول بعض عبيدك الذين نتكلم معهم الآن : إنك جسم جالس على العرش كجلوس أحدنا فى مكانه ، وقد تبين فساده بما سبق .

كل هذا وما ماثله مما لايليق بجلالك وعظمتك يامولاى ، يقوله من يقوله وأنت تسمعه وتحلم على من يقوله بل وترزقه وتغدق عليه ما تغدق من النعم التى لاتحصى ، وإذا تنبه لخطئه يوما وأناب إليك

ونزهك عما يقول واعتقد فيك ما أنت أهله ، بدلت سيئاته حسنات . وعفوت عنه وغفرت له . وجعلته من أحبابك الذين أعددت لهم دار كرامتك الأبدية ، لهم فيها ما اشتهت أنفسهم ، إنك يا مولاى غفور رحيم عفوّ كريم ، فلك الحمد حمدا يوافى نعمك ويكافئ مزيدك .

ولنعد إلى ما كنا فيه ، فنقول : إن هؤلاء الناس الذين يقولون : إن ربنا على العرش بذاته على بدعة من أشنع البدع وأقبحها وأجرئها على الله عز وجل وأبعدها عن الحق ، كما أنها برهان من أوضح البراهين على سخافة العقل الذى يقبلها ويصدق أن ربنا كما تقتضى . وكل الذى تمسك به هؤلاء الناس ويؤيدون به هذه البدعة ظواهر آيات وأحاديث يجب أن تفهم على غير هذا الظاهر فرارا من المحال الذى يترتب عليه . ونحن نعلم وكل مسلم يعلم أن العقل أصل الشرع وأساسه وعليه بنى ، فلا يمكن بحال من الأحوال أن يكون فى هذا الشرع ما يقف العقل فى وجهه ويعانده وينابذه .

والذى اتفقت عليه الأئمة : أنا إذا رأينا فى الكتاب أو فى السنة ما ظاهره يصطدم مع العقل وجب صرفه عن هذا الظاهر ليتلاءم ويتفق مع العقل ، وفى الكتاب والسنة كثير من هذا صرف عن ظاهره دون أىّ توقف فى صرفه ذلك .

ولو أنا أخذنا بكلّ ظاهر من ظواهر الكتاب والسنة دون أن نعمل عقولنا فيه لانتقلنا فى عشية أو ضحاها من صفوف المسلمين الخلص إلى الكافرين الذين لاريب فى كفرهم .

وبعد : فكل الآيات والأحاديث التى جاءت تدل على أن ربنا استوى على العرش ، لم تقل آية منها ولا حديث : إن ربنا استوى على العرش بذاته ، وهذا القيد « بذاته » من اختلاقات هؤلاء الناس وأكاذيبهم على الله ورسوله . ونحن نقول فى هذا كما يقول سلفنا الصالح رضى الله عنهم فى المتشابهات كلها : إن له معنى لائقا بربنا

هو يعلمه ونحن لانعلمه ، وننزه ربنا عن ظاهره هذا ولا نعتقده فيه أبدا ، وبهذا نبرأ من التشبيه والتعطيل ، وإذا أبى هؤلاء الناس إلا الأخذ بما يقتضيه هذا الظاهر ، قلنا : إذن صار الأخذ بظواهر الشريعة قاعدة لكم في مثل هذا مما جاء يثبت ظاهره لربنا صفات تشبه بخلقه ، فأنتم إذن تقولون إن ربنا تعالى في السماء أخذا بظاهر قوله تعالى (أأمِنْتُمْ مَنْ في السَّماءِ أنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأرْضَ) فان من يفهم هذا النص على ظاهره يقطع بأنه تعالى مظروف في السماء ، والسماء ظرف له هو داخلها مع الملائكة ، وهذا غير كونه تعالى على العرش قطعا ، فهل نأخذ بالنصين معا فنقول : إنه تعالى على العرش وفي السماوات في آن واحد ، أم كيف الحال ؟ وتقولون : إنه تعالى في الأرض كما أنه في السماء كما يقول عز وجل (وَهُوَ الَّذِي في السَّماءِ إلَهٌ وفي الأرْضِ إلَهٌ) وكما يقول تعالى (وَهُوَ اللهُ في السَّمَوَاتِ وفي الأرْضِ) فهاتان الآيتان تقولان بحسب ظاهرهما : إن ربنا ـ تعالى وتقدس ـ في الأرض كما أنه في السماء ، فكيف يكون ربنا على العرش وفي السماء وفي الأرض في وقت واحد ؟ وإذا لاحظنا مذهبكم الذي يقول بذاته ، قلنا إنكم تقولون إنه تعالى بذاته في كل من السماوات والأرض والعرش ، فيكون ربنا على مذهبكم ذوات ثلاثة . ولعلكم تقولون إنه في كل بذاته وهو واحد ، وإذا قلتموها وجدتم لكم نظيرا يقول إن الثلاثة واحد ، بل وتقولون إنه تعالى مع كل إنسان كما يقول عز وجل (ما يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ولا خَمْسَةٍ إلاَّ هُوَ سادِسُهُمْ ولا أدْنَى مِنْ ذلكَ ولا أكْثَرَ إلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أيْنَما كانُوا) وإذا أضفنا إلى ذلك أنه مع كل إنسان بذاته ، لزم أنه تعالى ذوات تعد بالملايين وبملايين الملايين .

وكذلك تقولون : إنه تعالى فوق صراط مستقيم بذاته كما يقول سبحانه (إنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) وهو مثل (الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى) تماما ، فما قيل فيها يقال هنا .

وتقولون كذلك : إنه تعالى يأتي (في ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ) . إن مذهبكم هذا يقول إن ذوات ربنا وأمكنته لاتتناهى أبدا ، وكل هذه وما ماثلها — وهو كثير — محالات لايقول بها أحد ، لكننا لو تقيدنا بالظاهر من النصوص الشرعية صرنا إليها ولابد . إذن لابد من الاستنارة بنور العقل في مثل هذه النصوص . وجناية كبرى على الدين أن يهدر العقل ولا يلتفت إلى إرشاده في فهم كتاب ربنا وسنة رسوله .

كل هذا نقوله توضيحا للمقام في ذاته وتساهلا مع هؤلاء الناس ، ولو أنا ضيقنا عليهم ودققنا في محاسبتهم ما تكلمنا معهم كلمة واحدة ولرأيناهم أحقر من أن يخاطبوا ، وهل يستحق أن يخاطب من يقول : إن ربنا يجلس أحد خلقه بجانبه على العرش يوم القيامة . ولعل جاهلا محبا للرسول صلى الله عليه وسلم يقول : هذا غاية التعظيم لنبينا صلى الله عليه وسلم فماذا فيه ؟ فأقول : ولكنه غاية في نقص ربنا عز وجل ، وهل من العقل أن يعظم المؤمن الرسول بما يكون نقصا في رب الرسول ؟ وهل ذلك إلا كما كان من قوم سيدنا عيسى صلى الله عليه وسلم في تعظيمه ؟ ومن من العقلاء يرضى أن يصف ربه بأنه قاعد على العرش قعودا يشاركه ويقارنه ويجاوره فيه أحد خلقه . إن هذا القرآن لايرضاه العقل أبدا .

والذي تصرح به هذه المقالة أن هؤلاء الناس يختارون أن ربنا عز وجل لايساوي العرش ولا يزيد عنه ، وإنما ينقص عنه ، فانه لولا نقصه هذا عندهم ما وجد فيه مكان يجلس فيه النبي صلى الله عليه وسلم . وإني لأرى أن المناقشة مع هؤلاء الناس بعد نقل هذا النص عنهم ،

لامعنى لها لإثبات أنهم يعتقدون الجسمية في ربنا عز وجل . وبهذا النص أيضا أصبحنا لانستغرب اعتقادهم أن ربنا تعالى جسم ذاهب في الكبر والثقل إلى حد لاتتصوره العقول ، وكيف تتصور العقول كبر وثقل جسم لا يحمله العرش إلا بصعوبة وعناء ، لدرجة أنه يئط به ويصوت حقيقة كما يئط ويصوت رحل الراكب تحته . والعرش معلوم أن السماوات والأرض بالنسبة له شيء صغير ، فإن الجميع في جوفه يحيط بها كما يحيط الظرف الكبير بالمظروف الصغير .

وإني أزيد القارئ بصيرة بعقيدة هؤلاء الناس ، فأترك هذا التلميذ وأعرّج على شيخه الذي لايعجبه حتى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولا سيدنا على بن أبي طالب كرم الله وجهه . وفي نظره أن كل الأمة في نهاية الغباوة والجهل والبعد عن الحق . فليسمع القارئ نقلا عنه في غاية الضخامة يليق بمشيخته ومركزه العظيم ، قال - لاحياه الله ولا بياه - : إن الله أعظم من كل شيء ، وأكبر من كل خلق ، ولم يحمله العرش عظما ولا قوة ، ولاحملة العرش حملوه بقوتهم ، ولا استقلوا بعرشه ، ولكن حملوه بقدرته ، وقد بلغنا أنهم حين حملوا العرش وفوقه الجبار في عزته وبهائه ضعفوا عن حمله واستكانوا وجثوا على ركبهم حتى لقنوا : لاحول ولا قوة إلا بالله ، فاستقلوا به بقدرة الله وإرادته ، ولولا ذلك ما استقل به العرش ولا الحملة ولا السماوات ولا الأرض ولا من فيهن ، ولو شاء لاستقر على ظهر بعوضة فاستقلت به بقدرته ولطف ربوبيته ، فكيف على عرش عظيم أكبر من السماوات السبع والأرضين السبع ؟ . انتهى هذا الكلام بعجره وبجره .

ولعل القارئ تعتريه دهشة ويسارع إليه إنكار أن هذا النقل صادر عن ذلك الرجل المسكين . وإني أحول بينه وبين ذلك الإنكار وأرجوه أن يراجع المجلد الخامس والعشرين من كتاب « الكواكب الدراري » لابن ذكنون الحنبلي وهو محفوظ بالخزانة الظاهرية بدمشق ، ليراه

بعينه هنالك بالحرف الواحد ضمن كتاب ردّ به هذا المسكين على كتاب « أساس التقديس » للفخر الرازى ، ومن ذلك المجلد نقله بحاثة معروف وبخطه الكريم وصل إلىّ ، وهذا النص لايبقى معه فى نفس أىّ إنسان أدنى شك فى أن القوم يعتقدون من قرارة نفوسهم أن ربنا جالس على العرش حقيقة بدرجة من الثقل جعلت حملة العرش على قوتهم الهائلة لايقوون على حمل العرش وفوقه ربهم تعالى ، ولشدة ذلك الثقل وقعوا وقوعا جثوا فيه على ركبهم ولم يستطيعوا أن يقفوا معتدلين حتى لقنهم فائدة : لاحول ولا قوة إلا بالله ، فلما لقنوها أمكنهم أن يحملوه عز وجل ، ولولا تلك الفائدة لعجز العالم كله سماواته وأرضه وإنسه وجنه وملائكته أن يحملوه ـ تنزه وتقدس ـ وبينما أنت فى غيبوبة لدهشتك من عظم وثقل هذا الجسم ، إذ تسمع هذا الرجل يقول : إنه تعالى لو شاء لاستقر على ظهر بعوضة ، فاستقل به وتحمله بقدرته ولطف ربوبيته ، هكذا يقول هذا الرجل المسكين ، وهو كلام يصح أن يكون وصفا لمعنى خيالى روائى ،لاوصفا لرب العالمين تعالى وتقدس . وإنى لأظن أن الوثنى يسمو بصنمه عن هذا الخيال المضحك ، ولست أتصور استعدادا يصدر عنه مثل هذا التخريف إلا استعداد قدماء المصريين وتصوراتهم فى آلهتهم . أما استعداد إسلامى فمعاذ الله ثم معاذ الله أن يخطر على فكره مثل هذه السخريات .

ولسنا نترك هذا الكلام ـ على فساده ـ دون أن نناقشه فنقول : الإنسان إذا ادعى أن الله يتصف بكذا وجب عليه أن يثبت ذلك بدليل شرعىّ لامغمز فيه ، فهل من هذا الوادى قول هذا الرجل : وقد بلغنا الخ ، حتى ينهض لإثبات ماوصف ربه به ؟ لقد بحثت ثم بحثت عن أصل يصح أن يرجع إليه كلام هذا الرجل فلم أجد شيئا أبدا لافى كلام ربنا ولا فى سنة نبيه ، لكنى رأيت كلمات نقلت عن وهب ابن منبه الرجل المعروف بأنه إخبارى يكثر من حكاية الإسرائيليات

التى غالبها لاأصل له : تلك الكلمات تحكى عجز الملائكة عن حمل العرش حتى لقنوا الحوقلة ، وباقى النقل السابق ليس بموجود أصلا مع تلك الكلمات ، فهى من زيادات هذا الرجل من غير شك ليروّج بدعته . ومع ذلك لايحل للرجل العالم أن يحكى مثل هذا الكلام الإسرائيلى سندا لحكم فرعى أو عقيدة مادام لاسند له من كلام الله ولا كلام رسوله ، بل كلام الله وكلام رسوله ينكرانه كل الإنكار . ثم كيف لو شاء لحملته بعوضة مع تلك المبالغات الهائلة فى وصف ضخامته وعظمه وثقله تعالى . ومع العلم بأن البعوضة من أصغر ماخلق الله عز وجل ، هل يتغير ذلك الجسم من تلك الحال إلى صغر وخفة يناسبان البعوضة ؟ أم يبقى على ما هو عليه ومع ذلك تقله البعوضة وتقوى على حمله وهو عليها ؟ إن اخترتم الأول لزمكم أن ربنا يتغير ، ولو قام التغير بربنا كان حادثا بلا نزاع وهو محال ؛ وإن اخترتم الثانى لزم محال أيضا ، فان العقل لايستطيع أن يتصور جرما فى نهاية الصغر والضعف يقوى ويتسع لحمل جرم فى نهاية الكبر والثقل وكل منهما على ما هو عليه . وقد عدّ ربنا أن دخول الجمل فى سم الخياط محال ، وعلق على وجوده دخول الكفار الجنة ، وإذا كان هذا محالا فكيف لايكون ألف ألف محال ذلك الذى تختارونه ، وإذا بطل هذا وذاك كان هذا الكلام المنقول عن هذا الرجل المسكين كاذبا لامحالة لايجوز أن ينسب إلى الشرائع السماوية الحكيمة ، ولا أن يتصف بمضمونه مولانا الذى يجب له كل كمال ، ويستحيل عليه كل نقص . وبهذا النقل الكاذب الخاطئ الجنونى أصبحنا لانتردد فى أن القوم لايرون من النقص فى شىء أن يعتقدوا أن ربنا عز وجل جسم محدود وأنه قاعد وجالس على العرش قعودنا على أمكنتنا ، وأن العرش يقله بصعوبة وعناء لحد أنه يئط ويصوّت من ثقله عليه لايكنون فى هذا ولا يعنون معنى مجازيا ، وأنه قادر على أن يتشكل من صغر إلى كبر وبالعكس ، وعلى أن يثقل

ويخف ، ويخسف ويثقل . وهذه صفات لانعرفها لربنا عز وجل الذى خالق السماوات والأرض وما فيهما وإليه المصير ، وإنما هى صفات لرب آخر تخيله هؤلاء الناس ورضوه ربا لأنفسهم ، وقد عالجناهم بما تقدم لينبذوا هذا الإله الذى بتلك الصفات الخيالية الخرافية ؛ فان تبعونا فالخير أرادوا لأنفسهم ، وإلا فليهنأوا به ثم ليهنأوا .

وأما نحن فنكفر بإله هذا وصفه ولا نرضاه ربّا لنا أبدا ، لأنا أعقل من أن نرضى لأنفسنا فضيحة كهذه لانظن أن الرجل العاقل يفتضح بأكبر منها . نعم نحن نرفع قدر العقل عن أن يلتفت لمثل هذا إلا بغاية الاحتقار والازدراء والمقت ، ولا نصدّق أبدا أن يصغى لمثل هذا وصفا للخالق المعبود إلا المجانين وأشباه المجانين . وذلك ما نسجله هنا ونلفت له نظر قوم افتتنوا بهذا الرجل المسكين وتلميذه ذلك افتتانا أداهم لأن يقلدوهما التقليد الأعمى مع الاستماتة فى حبهما والدفاع عنهما وتقديسهما التقديس الذى يندهش له كل من يعرفه . وبينما تراهم مع هذين الرجلين هكذا ، إذ تراهم يرمون الأئمة الأربعة بكل داهية ، ويرونهم أحقر من أن يقلدوا ، وهم الذين وقع الإجماع من الأمة كلها من عهدهم لليوم على أنهم جديرون بقيادتها فى دينها ، ولذلك اتبعتهم بما فيها من أولياء وعلماء وملوك وسواهم من فضلاء العالم ، وإنما اتبعوهم ذلك الاتباع لما كانوا عليه من فرط الورع وسعة العلم ونفوذ البصيرة وقوم هذا حالهم لاينتظر لمقلدهم الماشى وراءهم إلا الوصول إلى ما يريد من السعادة فى الدنيا والآخرة .

نعم نرجو أن يلتفت أولئك المفتتنون بهذين الرجلين إلى ما نحكى عنهما ، من سوء عقيدة ما سمع الدهر بمثلها ، ومن يد خائنة تعودت أن تكذب وتدلس وتنقل الحقائق الدينية على غير وجهها وفى غير مواضعها ، وقد تقدمت (عينة) من ذلك عن هذا الرجل وعن تلميذه ، ومن رجل خاطئة لا يعجبها السير إلا فى سبيل من لايوثق بهم من أهل

الأهواء والأغراض كما وصف الشيخ بذلك بعض معاصريه ، وكما نراه بأعيننا فى كتبهما ، ولذلك تجدهما إذا استدلا نقلا كل ماهب ودب مما لا حقيقة له تعرف ولا أصل له يوصف ، يهيم فى أوديته هذا الرجل وتلميذه ، ويوردان منه ما يوردان ، وهما يعلمان قيمته وقدره ، جريا وراء بدعتهما هذه التى استحكمت ثم استحكمت فى نفوسهما حتى أفقدتهما العقل والرشد . نعوذ الله من البدع وآثارها ، ومن قلوب تتأجج وتلتهب غضبا على كل عباد الله خصوصا أحباب ربنا عز وجل ، ذلك فوق ما الرجلان عليه من طيش ورعونة لاحدّ لهما ، ومن نظر فى كتبهما نظرة بسيطة تيقن ما أقول . وأناس هذا حالهم ، من الظلم الفاحش أن يكونوا أئمة لخير أمة أخرجت للناس ، ولعله لا يتردد عاقل فى أن من يمشى وراء أمثال هؤلاء هالك ثم هالك .

وعجبنا العاجب أن يتعصب هؤلاء الناس لهذه المقالة الجنونية لحد أن يختصوها بقسط عظيم من عنايتهم حتى ألفوا فيها المؤلفات التى لا تحصى ، ولقد بلغت الجرأة بأحد هؤلاء المساكين أن يسمى رسالة ألفها فى هذا الموضع باسم « إثبات الحد لله عز وجل وأنه قاعد وجالس على العرش » هذا العنوان وحده كاف وفوق الكفاية لاثبات المقصود ، فانظر كيف لم يستح مؤلفها « محمود بن أبى القاسم الدشتى » من قوله « قاعد وجالس » لا تكفيه مادة الجلوس وحدها ولا مادة القعود وحدها وفى كل منهما غنية ، ولكنه جمع بينهما بصيغة اسم الفاعل التى تفهم التلبس بالفعل ، ليفيد غرضه مؤكدا ثم مؤكدا بعد تأكيده كل التأكيد بقوله « إثبات الحد لله عز وجل » فانه تعالى إذا كان محدودا كان جسما فى مكان قاعدا وجالسا أو على أى شكل كان ، لأن المحدود هكذا يكون . لقد رفع هذا الرجل برقع الحياء عن وجهه وجاهر بما عليه القوم مجاهرة لا تحتمل صرفا ولا تأويلا ، وإذا كان اسم الرسالة فقط يفيد كل ما ذكرنا ، فماذا عسى أن ينتظره القارئ من المعنون له ..

ومعلوم أن هذه الطائفة إذا كتب أحدهم فى مثل هذه المعانى أجلب بخيله ورجله ، لايرقب إلا ولا ذمة لأى ربّ ولا فى مربوب ، بجولات لاحد لنشاطه فيها ، لاتخلو إلا فى ميادين البدع والمبتدعين .

وإنا بعد هذا البيان ، نجزم أن القارئ صار فى إمكانه أن يقيد هؤلاء الناس بقيد من حديد ، ويجمع أيديهم إلى أعناقهم ، ثم يقبض على تلك الأعناق بأصابع من فولاذ قبضا لايستطيعون الإفلات منه بحال فليحرص عليه ثم ليحرص ، فانه مما انفردت به هذه الرسالة ؛ والله تعالى أعلم .

الاجتهاد والمجتهدون

الاجتهاد المطلق مقام رفيع ، كم حاول الوصول إليه فحول فقضوا وهم فى هذه المحاولة ، ومحبوب شاسع المزار كم سافرت إليه أبطال على نجائب الهمم عشرات السنين ، قطعوا فيها من شعابه وأوديته ومهامهه الكثير ثم الكثير ، ثم كلت رواحلهم وانقطعت دون أن يدنوا منه ، وميدان كم همّ أن ينزل فيه فرسان ، ولكنهم بعد أن رأوا أهل السباق فيه رجعوا مقتنعين أنهم ليسوا من رجال هذا الميدان . وإنما كان الاجتهاد بهذه المنزلة لأنه قيادة عامة للأمة بأسرها ، ويزيد فى خطورة هذه القيادة أنها مقيدة بسلوك سبيل واحد هو سبيل الله تعالى الذى أرسل لبيانه لنا سيد أنبيائه صلى الله عليه وسلم . فالقائم فى هذا المقام ينوب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيان تلك السبيل للناس كافة ، لايشتبه على أى سالك منزل من منازلها إلا وهو مستعدّ للارشاد إليه . وهذه الطريق بجانبها سبل أخرى لايحصيها العد ولا يأتى عليها البيان وما من سبيل منها إلا وعلى رأسه مالا يعد ولا يحصى من شياطين الانس والجن يدعون إليه السالكين مؤكدين كل التأكيد أنه سبيل الله تعالى حقا ، أما سبيل الله الذى هو سبيله بلا ريب فيقولون فيه بلهجة جازمة إنه

سبيل مضلة مهلكة لا يلاقى سالكها إلا الردى ، ولا ينتهى إلا إلى الشقاء ، ولا يقولون ذلك مطلق قول ، بل يردفونه ببراهين عدد المطر ، كل برهان له مقدماته ونتائجه ، والمضلون لايعدمون من الأباطيل ما يسمونه براهين ، ويدندنون ثم يدندنون حول مقدماتها و نتائجها ليقوموا حق القيام بوظائفهم الإغوائية .

ولا شك أن قيادةً ذلك شأنها فى منتهى الدقة والخطر ـ كيف لا ؟ والمتصدر لها وراءه أمة لم تسر خلفه خطوة إلا بعد أن فهمت منه أن الطريق الذى كلف الله عباده بسلوكه هو عين الطريق الذى يسلكها ، ومعنى هذا أنه إن ضل ضلت وراءه كل الأمة وقد علمت أن المضلات كثيرة ثم كثيرة ، وأى خطر فوق هذا الخطر ؟ .

وإن شئت فقل فى تحديد هذا القائد إن الأمة لم تسر خلفه إلا بعد أن سمعت حكمه بأن كل ما يستنبطه من الأحكام التكليفية ويدعو العالمَ إلى العمل به دل عليه الكتاب والسنة جزئية جزئية ، وهو حكم لايجرؤ على إصداره إلا رجل مخصوص ، رجل عرف من اللغة العربية لغة ونحوا وبيانا ما يكفى لفهم الكتاب والسنة فهما يعتمد على الوضع العربى والذوق العربى ، فان من لايعرف ذلك من العربية لايؤمن عليه أن يفسر الآية أو الحديث بمعنى فى ناحية ، والمعنى الذى وضع له اللفظ أو التركيب فى ناحية أخرى ؛ ويحيط مع هذا بآيات وأحاديث الأحكام ، لئلا يفزع إلى القياس فى حادثة وفى الكتاب أو السنة ما يدل على حكمها ، ومعلوم أنه لاقياس مع وجود النص ؛ وليس ذلك فقط الذى يعرفه ، بل يضيف إليه معرفة الناسخ والمنسوخ من الكتاب والسنة لأنه إذ لم يعرف ذلك ربما أصدر حكما تكليفيا يتعب الناس فى امتثاله وهو منسوخ ؛ ولا يقتصر على هذا بل يحيط معه علما بما أجمع عليه العلماء قبله ؛ لئلا يقود الناس إلى مايخالف إجماع العلماء ، وما إلى

هذا ينتهى ما يحيط به ، بل عليه مع ذلك أن يعلم من فن الحديث دراية ما يميز به صحيح الحديث من حسنه من ضعيفه من موضوعه ، لئلا يختلط عليه الأمر ، فيحكم فى الحل والحرمة مستندا إلى حديث ضعيف أو يجيز أن يعمل الناس بالموضوع ، وكل لايجوز . ولا يقف الأمر فى علمه إلى هذا الحد ، بل وعليه أن يعلم من علم الأصول : أصول الفقه ما به يفهم متى يفيد الدليل الوجوب أو الحرمة أو الندب أو الكراهة أو الإباحة ، وماذا يعمل لو تعارض دليلان نص وظاهر ، أو ظاهر ومحكم ، أو محكم ومفسر ، أومنطوق ومفهوم ، أو عام وخاص ، أو مطلق ومقيد ، أو كانا من واد واحد واتفقا قوة وضعفا أو اختلفا . وكيف يتصرف إذا لم يجد فى حادثة كتابا ولا سنة ولا إجماعا ، وما إلى ذلك مما لو جهله المتصدر للقيادة لم يدر أين سبيل الله وأين غيرها من السبل المضلة . كل هذا يجب أن يحيط به علما من يقول إنى مجتهد .

ولهذا كله أساس يجب أن يكون قبل الكل ، وهو الاعتقاد السليم البعيد عن البدعة ، والاستقامة التى تنكسر عندها سهام المطاعن دون أن تخدشها بخدش ، لأن المجتهد قدوة فى عمله واعتقاده ، فاذا كان مبتدعا قاد الناس إلى بدعته ، فأوردهم المهالك ، وإذا كان غير مستقيم شكك الناس فى أمانته فنبذوه ، أو مشى وراءه فى اعوجاجه من لا يشك فأورده الموارد ، وعلى كل لا يصلح أن يكون إماما .

ولما أن الاجتهاد هذا طول سبيله ووعورته لم يكن فى عهد النبوة ، وهو أبرك الأعصار وأجلها ، من هذا الطراز العالى إلا أفراد وقد كانوا عربا نزل القرآن وجاءت السنة بلغتهم مع ما كانوا عليه من الذكاء الفطرى الذى ما سمع الدهر بمثله ، ثم مع ذلك ما كانوا يحتاجون لعلم كثير مما ذكرنا ، فانهم كانوا يتلقون الشريعة من مهبطها صلى الله عليه وسلم يسمعونها من لسانه الكريم تخرج من بين شفتيه الكريمتين لا معلم ولا أستاذ لهم غيره صلى الله عليه وسلم ، وهو سيد المعلمين وأستاذ الأساتذة ؛

ولا تنس أنهم فى كل آناتهم مغمورون فى بركاته لاتغرب عنهم شمس أنواره ولا ينقطع مدد أسراره عنهم لحظة من ليل أو نهار ، ومع كل هذا لم يصل منهم - رضى الله عنهم - إلى هـذا المقام مقام الاجتهاد المطلق إلا أفراد قليلون كما قلنا لك ، وكان باقيهم رضى الله عنهم يرجعون فى مهامهم إليه صلى الله عليه وسلم ، أو إلى أولئك العلماء الذين نشير إليهم ، فانهم كانوا يفتون بما تعلموه منه وهو بعد لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى صلى الله عليه وسلم .

وأحب أن يعلم القارئ مع ما تقدم أن الصحابة رضى الله عنهم لم يكونوا فى حفظهم بدرجة نعقلها نحن اليوم ، ومن يعقل أن رجلا تقرأ عليه قصيدة طويلة مرة واحدة فيحفظها ويعيدها كما سمعها ، ويبلغ حفظه لها إلى درجة أن يعيدها مرة ثانية من آخر بيت منها راجعا إلى أول بيت حتى ينتهى منها كما كان من سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما .

علم سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه القوة فيهم فكان إذا حدثهم الحديث لايعيده أكثر من مرتين ، وتكون قراءته أمامهم ثلاث مرات كافية ، لأن يحفظه أضعفهم حفظا ، وبذلك يكون قد تأكد كل التأكد عند الباقين . هذا نقوله عن أناس حضروا الإسلام فى عنفوان شبابه ونهاية فتوته ، وكانوا فى فرح به لايحد ، فانهم كانوا قبله فى ظلمات بعضها فوق بعض ، عميا لايبصرون ، صما لايسمعون ، بكما لايتكلمون ، كالأنعام بل هم أضل ، كانوا ينحتون الحجارة بأيديهم يزيلون منها ما يزيلون ويبقون ما يبقون ، ويصورونها كما يشاءون ، ثم يضعونها بأيديهم حيث اشتهوا ، ثم يقبلون بعد ذلك كله على عبادتها ؛ كما يعبد المؤمنون رب العالمين .

وقد كانت تنزل بهم أعوام شديدة يجوعون فيها ، فاذا آلمهم مس الجوع بادروا إلى آلهة صنعوها من عجوة فتناولوها وأكلوها ثم

تبرزوها ، وقد كانوا قبل ذلك بلصيقات يعبدونها ويعتقدون أنها آلهة حقا تضر وتنفع وتعطى وتمنع . فلما أشرقت عليهم شمس الإسلام تبددت عنهم ظلمات ذلك الكفر الشنيع ، وانفتحت أبصارهم وبصائرهم وأسماعهم ، وانفتقت ألسنتهم . فسمعوا الحق ونطقوا به وكما يشاء نظروا وعملوا .

فلو كان هذا المقام مقام الاجتهاد هينا لينا لكان كل هؤلاء الناس على الذروة العليا من الاجتهاد بكل تلك العوامل التى وصفناها لك . وحيث كانوا مع الاجتهاد كما ذكرنا دل ذلك على أن مقام الاجتهاد بلغ من الاستعصاء والتمنع أسمى ما يتصوره المتصورون فى مقامات البشر ، وزاد هذا المعنى وضوحا ما كان فى القرن الثانى والثالث بعد ذلك القرن الكريم ، قرن الصحابة رضى الله عنهم ، فان السواد الأعظم فى هذين القرنين الجليلين كان فى درجة التقليد الصرف ، ولم يتجاوز هذه الدرجة إلا أفراد أيضا ، وتستطيع أن تعلل وصول أولئك الأفراد إلى هذا المقام بمعنى لا يجعله غريبا عند النفس ، ذلك المعنى هو قربهم رضى الله عنهم من عهده المبارك صلى الله عليه وسلم ، وتشرفهم برؤية أصحابه رضى الله عنهم ، أو برؤية من رآهم ، أو رأى من رأى من رآهم . وقد شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن هذه القرون الثلاثة خير القرون ، وأخبر أن الله تعالى يفتح للجيش ، فيه واحد فى الطبقة الرابعة من أصحابه ببركة ذلك الواحد . فإذا اختصت هذه القرون الثلاثة بقادة الخلق وهداتهم وأئمتهم كان هذا الاختصاص فى غاية الظهور . وإنى أرجو وأشدد فى الرجاء أن يكون هذا المعنى على بال القارئ ، فان به كان أولئك الناس ، أئمة القرن الثانى والثالث ، أعاجيب ، وكيف لا وأنت تسمع الليث بن سعد رضى الله عنه يخبر عن نفسه أنه لو أملى ما يحفظ لوقر مركبا . وتسمع الإمام الشافعى رضى الله عنه يخبر أنه كتب حمل بعير عن الإمام محمد بن الحسن صاحب الإمام أبى حنيفة رضى الله

عنهم فى أول قدمة قدمها عليه ، وهو بالضرورة لا يكتب إلا ما يحفظ وإذا كان هذا حفظه عن واحد ممن لقيهم فكيف بحفظه عن الباقين وهم كثيرون وكثيرون . وتسمع أن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه كان يحفظ ألف ألف حديث بأسانيدها ، ويعرف كيف يقول فى أىّ واحد من أىّ إسناد من كلّ تلك الأسانيد ، ويعرف لماذا قال فيه ما قال .

نعم كانت صدورهم سجلات لا يمحى ما نقش فيها ما حيوا ، ولذلك كان أحدهم يحدثك اليوم الحديث وتسأله عنه بعد عشرين سنة فيسرده لك دون أن ينقص أو يزيد حرفا واحدا ، وأنت لليوم وبعد اليوم تقرأ أن أصح الأسانيد ما كان عن مالك عن نافع عن ابن عمر لقوة ضبط سيدنا مالك رضى الله عنه وحفظه . وساعد على هذا الحفظ الباهر أن همهم كان واحدا هو همّ آخرتهم ، لم تتشتت أفكارهم فى أودية الدنيا ، ولم تتفرق أهواؤهم فى شعابها وسباسبها ، وما كان لها فى أنفسهم أىّ مقدار ، إن أقبلت استخدموها فيما يرضى ربهم . كما تسمع أن سيدنا مالكا رضى الله عنه قاسم سيدنا الإمام الشافعى ماله مرات . وكما تسمع أن سيدنا الإمام الشافعى عاد من اليمن إلى مكة بمال جزيل ، فضرب خيمة جلس فيها قبل دخول البلد وفرق كل ما كان معه ، وقام وليس بيده من كل ذلك المال درهم ولا دينار . وكما تسمع أن أبا حنيفة رأى رجلا يتوارى منه ، فناداه وسأله لماذا هذا التوارى ؟ فأخبره أنه مدين له بعشرة آلاف درهم من زمن بعيد ، فقال : سبحان الله ! بلغ بك هذا الأمر إلى هذا الحد ؟ جعلتك فى حل ، فاجعلنى فى حل مما دخل فى قلبك متى كنت تلقانى . وكان رضى الله عنه ينفق مثل ما يصرف على نفسه وأهله . أما ما كان يواسى به تلاميذه من المال فهذا كان الذى لا يحصى ؛ وسيق إلى سيدنا مالك رضى الله عنه مال كثير رآه سيدنا الإمام الشافعى رضى الله عنه وكأنه أعجبه فوهبه له كله .

وإن أدبرت عنهم لاتلتفت إليها قلوبهم . ولهذا تسمع أن سيدنا أحمد ابن حنبل رضى الله عنه كان يمكث الأيام محبوسا فى بيته لايجد من اللباس ما يصلح لخروجه ، ومع ذلك كانت تهدى إليه الهدايا الكثيرة فيردها فلاموه على ذلك ، فقال رضى الله عنه : إنها أيام قلائل وتنقضى .

وأناس هذا شأنهم فى الإقبال على الآخرة وعدم الاهتمام بالدنيا ليس بغريب أن يصلوا إلى ذلك المقام الرفيع ، خصوصا إذا كانوا من الورع كما تسمع عن أبى حنيفة رضى الله عنه أنه تحرّج عن الاستظلال بظل حائط مدينه لئلا يكون ذلك نفعا جره قرضه .

ومن تعظيم العلم إلى مثل ما تسمع عن سيدنا مالك من أنه كان إذا أراد أن يجلس للتحديث يغتسل ويتعطر ويلبس أحسن ثيابه ويسرح لحيته ويتجمل ثم يجلس . ولدغته يوما عقرب ست عشرة مرة وهو يحدث ، فكان يتغير ويتلوى ولا يقطع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم تعظيما له .

ومن الخوف من الله تعالى إلى مثل ما تسمع عن سيدنا أحمد بن حنبل أنه بال فى طست وهو مريض مرض الموت دما عبيطا ، فرأى ذلك الدم طبيب ، فقال فى سيدنا أحمد رضى الله عنه : هذا رجل فتت الحزن كبده ، وكما تسمع أن الإمام أبا حنيفة رضى الله عنه دعى للقضاء فامتنع عنه ، فضرب فى ذلك بالسياط وحبس بل ومات فى الحبس ، ولما سمع إشفاق المشفقين عليه وهم يقولون ماذا عليه لو ولى واتقى هذه السياط ؟ قال : سياط الدنيا ولا سياط الآخرة .

ومن الاجتهاد فى طاعة الله تعالى كما تسمع أن الإمام أبا حنيفة رضى الله عنه مكث يصلى الفجر بوضوء العشاء أربعين أو خمسين سنة . وكما تسمع أن الإمام أحمد كان يصلى فى اليوم والليلة ثلثمائة ركعة ، فلما مرض وتقدمت سنه كان يصلى مائة وخمسين ركعة . وكما يقول عنه

من عاشره : ما رأيته أفطر إلا يوما واحدا أفطر واحتجم . وكما تسمع أن أبا حنيفة حج أكثر من خمسين حجة .

ومن الأمانة فى العلم بدرجة لاتخطر على أفكارنا اليوم ؛ كما تسمع عن سيدنا مالك رضى الله عنه يقول : إنى لأفكر فى مسألة منذ بضع عشرة سنة ما اتفق لى فيها رأى إلى الآن ، ويقول : من أحب أن يجيب عن كل مسألة فليعرض نفسه على الجنة والنار ، وكيف يكون خلاصه فى الآخرة ، ثم يجيب ويقول : أدركنا أهل العلم ببلدنا وإن أحدهم إذا سئل عن المسألة كأنما الموت أشرف عليه ، ويقول : إنى أخاف أن يكون لى من المسائل يوم أىّ يوم .

ومن التقلل فى المآكل والمشارب والزهد فيها إلى مثل ما يقول الإمام الشافعى رضى الله عنه : ما شبعت منذ ست عشرة سنة ، لأن الشبع يثقل البدن ويقسى القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة . وكما تسمع سيدنا مالكا يقول : لقد استحييت من ربى من كثرة ما أتردّد على بيت الخلاء ، وكان لايذهب إليه إلا كل يومين مرة .

وليس ما ذكر هو كل ما ساعد أولئك الأفراد على وصولهم إلى مقام الاجتهاد ، بل كان هناك مساعد أىّ مساعد فوق ماذكر ، وهو أن الوقت كان وقت تبليغ الشريعة ، فكان تعلم العلم وتعليمه هو الميدان الذى يتسابق فيه الرجال إذ ذاك ، حتى كان الواحد يسافر لأجل التثبت من حديث واحد شهرا كاملا .

ولما أن الوقت كما قلنا كان ادعاء العلم إذ ذاك محفوفا بالخطر ، فلا يفتح أحد فاه بتلك الدعوى إلا وتجد هداة الأمة كلهم اتجاه إليه ينظرون ، أمحق هو فيما يدعى ؟ ثقة فيما يقول ؟ ضابط لما يسمع ؟ يستند فى علمه إلى ركن شديد إذا استند إليه لاينهار به ؟ قدوة حسنة

في عقيدته وعمله . فإذا توفرت فيه هذه الشروط تركوه والناس يبلغهم ما يبلغ وأمنوا الناس من ناحيته . وإن كان غير ذلك أخذوا على يديه وسدوا عليه المسالك ، ورفعوا أصواتهم أينما كانوا يبينون للناس قدره ويحذرونهم من أخذ دينهم عنه . ومن لم تصل إليهم أصواتهم لبعدهم أو لأنهم لم يوجدوا بعد ، كتبوا إليهم الرسائل ، والكتب التي بين أيدينا منها لليوم السرج المنيرة والشموس التي تغرب شموس السماء وهي لاتغرب . وكم بهذه الكتب افتضح ناس وانفض الناس من حول أناس . وهل تنتظر منهم فوق أنهم ربما قالوا في الرجل إنه لايساوي بعرة . ولقد وصل تحريهم ومبالغتهم في وضع كل إنسان في منزلته اللائقة به أن بعضهم ذهب إلى أن سيدنا أحمد بن حنبل رضي الله عنه محدّث فقط وليس من فريق الفقهاء المجتهدين . وبين يدينا اليوم كتاب « الانتقاء في فضل الثلاثة الأئمة الفقهاء » مالك والشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهم ، وهو للحافظ ابن عبد البر رضي الله عنه ، وهو بالضرورة لم يقل ما قال إلا تابعا لرجال في ذلك العهد .

هذا قولهم في أحمد بن حنبل ، ومعروف من هو أحمد بين الأمة الإسلامية من عصره لليوم ، وهو الذي يقول فيه بعض معاصريه : كأنه جمع له علم الأولين والآخرين .

هذه الرقابة العلمية الشديدة على رجال ذلك العصر جعلت أولئك الأفراد يبالغون ثم يبالغون في استيفاء ما به لاتمسهم تلك الرقابة .

والرقابة العليا عندهم رقابة ربهم عز وجل كما تقدم ما يفهمك ذلك ، لهذا وصلوا إلى ما أرادوا وفوق ما أرادوا .

ولو أردنا أن ننقل للقارئ ثناء رجال العلم وحملة الشريعة في ذلك العصر على هؤلاء الأئمة لطال بنا الكلام ثم طال . فإن كل إمام من هؤلاء الأئمة المشهورين ألف في فضله مؤلفات تعدّ بالمجلدات . فإذا

عسى أن ننقل ؟ غربت شمس أولئك الأئمة رضى الله عنهم ، ولم تر الدنيا شمس إمام بعدهم لهذا اليوم .

نعم انتهت تلك القرون وانتهى من تسمع وصفهم من رجالها ، ولم نسمع بعدهم أن رجلا ادعى الاجتهاد المطلق وسمح أن تتبعه الأمة كما تابع أولئك الأئمة رضى الله عنهم ، لم نسمع ذلك وإن كان جاء بعدهم الكثير الطيب من العلماء الذين تطيش عقولنا اليوم لسماع وصفهم حفظا ودينا . والسر فى أنهم لم يدعوا تلك الدعوى — مع فضلهم ذلك — أنهم كانوا علماء حقا ، عرفوا قدر أنفسهم وقدر أولئك الأئمة ، فرأوا الفرق بينهما كبيرا والبون بعيدا ، فوقفوا عند حدهم ، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه . وهكذا أنت لاتجد إنسانا يعرف قدر إنسان آخر إلا إذا كان من واديه فى علمه ، فالمرء إذا كان عالما يعرف قدر العالم ، وإذا كان سياسيا يعرف قدر السياسى ، وإذا كان حائكا يعرف قدر الحائك ، وإذا كان صائغا يعرف قدر الصائغ ، وإذا كان حدادا يعرف قدر الحداد ، وإذا كان زارعا يعرف قدر الزارع ، وهكذا ، فالجاهل لايعرف قدر العالم ، ولا الحائك يعرف قدر السياسى ، ولا الزارع يعرف قدر الحداد ، ولا الحداد يعرف قدر الصائغ وهكذا . وبارك الله فى العلم ولا حرمنا منه ، فهو أبو كل الفضائل ومنه ما تتكلم فيه . ولقد حدثت الجلال السيوطى نفسه رضى الله عنه أن يدعى هذه الدعوى ، دعوى الاجتهاد المطلق ، فما كادت تسمع من فيه حتى قامت عليه قيامة العلماء فى عصره وعرفوه قدره فسكت ، ووقف عند حده . والسيوطى من يعلم القارئ حفظا وإتقانا ، وهذه كتبه تملأ الدنيا فى كل فن من فنون العلم ، بل أين السيوطى ممن سبقه من علماء الإسلام فى إحاطتهم وتيقظهم ، ومع ذلك لم تسمح أنفسهم أن يدعوا تلك الدعوى كما قلنا لك ، ولو ادعوها ما قبلت منهم ، ولكانوا جاهلين بمقدار الإمامة

هذا إمام الحرمين رضى الله عنه يقول : ما تكلمت فى علم الكلام كلمة حتى حفظت من كلام القاضى أبى بكر وحده اثنى عشر ألف ورقة يعنى أربعا وعشرين ألف صحيفة ، هذا يحفظه فى فن واحد عن رجل واحد من أهل ذلك الفن . وقال يوما لتلميذه الإمام الغزالى : يا فقيه ، فتغير وجه الغزالى كأنه يستصغر هذا الوصف على نفسه ، فقال له : افتح هذا البيت ، ففتح مكانا فوجده مملوءا بالكتب ، فقال له : ما قيل لى يا فقيه حتّى أتيت على هذه الكتب كلها : يعنى حفظا .

وكان إمام الحرمين رضى الله عنه رجلا شافعيا عاديا يتبع الإمام الشافعى رضى الله عنه ؛ لم يدّع الاجتهاد وهو يحفظ كتبا تملأ بيتا .

وهذا السرخسى يكتب كتابه المبسوط ـ وهو ثلاثون جزءا ـ وكان إذ ذاك فى السجن ليس له من المراجع إلا صدره ، وهو إذا استدل لمذهبه أو لمخالفه نقلا أو عقلا يخيل لك أن الجبل يزول ودليله لا يزول ، ثم يؤيد مذهبه بخدش مذهب مخالفه بما لا تشك معه أن مذهبه هو الحق ؛ ولا تعجب أيها القارئ . فان هذا الرجل نقل مترجموه أنه كان يحفظ اثنى عشر ألف كراس : أى أربعين ألفا ومائتى ألف صحيفة إذا كان الكراس عشر ورقات . هذا حفظ السرخسى الذى مات فى القرن الخامس كامام الحرمين المتقدم ، ومع ذلك لم يدع الاجتهاد ، بل كان رجلا حنفيا يتبع الإمام أبا حنيفة رضى الله عنه .

وإذا كان ذلك حفظ هؤلاء المتأخرين ، فما ظنك بحفظ تلاميذ الأئمة ؟ كالإمام محمد الذى تقدم أن الشافعى رضى الله عنه كتب عنه حمل بعير فى أول قدمة قدمها عليه ، ولا يظن أن الشافعى كتب كل ما عنده من العلم ، ومن راجع طبقات العلماء وأخبارهم وقف من هذا على العجب العجاب ، وقد يقع ما نحكى غريبا فى نفوس أهل هذه الأزمنة نظرا لفشوّ الجهل وضعف القوة الحافظة .

مات العلماء رضى الله عنهم ومات معهم علمهم ، وخلف من بعدهم خلف ليسوا فى العلم هنا ولا هنالك ، رأوا فى أنفسهم أنهم علماء وأنهم أئمة لخلو الزمان عن الأئمة . وكان أول هؤلاء على ما نعلم رجل رأيناه نحن بأعيننا ، كان عند نفسه فى السماء ، وعند غيره من عارفيه لايزيد عن أمثاله قدر نقير إن لم ينقص عنهم ، وبين يدينا لليوم بعضهم . هوّن هذا الرجل مقام الاجتهاد ، وتكلم فى سهولته ثم تكلم حتى أوقع فى نفوس سامعيه أن هذا الاجتهاد فى إمكان كل إنسان ، ثم مات وكلامه يرنّ فى آذان من حضروا دروسه ، وتغلغل فى قلوبهم مافقهوه عنه . فتقدم أناس منهم إلى تلك الدعوى بقلوب كلها جرأة واستهانة بما تقدموا إليه ، ثم تبع هؤلاء آخرون ، ثم سار وراءهم آخرون ، وصار كل واحد من هؤلاء داعية إلى الاجتهاد المطلق حتى غدوا اليوم لايحصرون ، فأصبحنا وقد امتلأ القطر من هذا الصنف صنف المجتهدين كل مجتهد منهم عند نفسه دونه بمراحل أكبر إمام تقدم . ولذلك تراهم ينظرون إلى الأئمة رضوان الله عليهم بعين الاحتقار والازدراء ، ويتكلمون فيهم بما يفهم سامعهم أن أولئك الأئمة كانوا السبب الوحيد فى كل بلية نزلت وتنزل بالمسلمين ، ويصرحون بأن هذا الشر لاينقطع ما دام من مقلدى هؤلاء الأئمة فرد واحد على ظهر الأرض .

أما إذا تحققت فكرتهم ، وهم المصلحون العظماء عند أنفسهم ، بأن سلك وراءهم طريق الاجتهاد المطلق كل إنسان ، ولو لم ير مجلس علم طول حياته ، فحينئذ تتغير الحال وينقلب الشر خيرا والبؤس يسارا والخمول نباهة والشقاء سعادة والضعف قوة . ومن جالس هؤلاء الناس وقرأ ما يكتبون تعجب كل العجب من حملاتهم المتتالية على كل من لم يوافقهم على منهجهم ، وهم يسيرون فى هذا وراء أستاذهم الذى نشير إليه فانه هكذا كان ، وكان هو يسير وراء رجلين سبقاه من عصور إلى ما كان يدّعى ، وهما الرجلان اللذان عنهما كتبنا ما كتبنا

في الفصل السابق ، ولقد كان لسانهما في هذا الميدان ميدان الطعن على الأئمة ورميهم بالدواهي والطعن على مقلديهم ، أحدّ من السيف وأحرّ من الجمر ، فورث هذا عنهما من أعجباه ووراءهما سار .

إن هذا وحده يدل دلالة قاطعة على أن هذه الطائفة من أولها إلى آخرها ليست من الإمامة بل ولا من العلم في شيء ، فإن كتاب ربنا عز وجل يقول (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا) هذه الآية نقرؤها ونسمعها كل يوم وهي تعلمنا العطف والرحمة على جميع المؤمنين موجودين أو لحقوا بربهم ، وتطلب منا أن نسأل ربنا عز وجل أن يرزقنا الصفاء والمحبة لهم ، وتخص من سبقونا بالإيمان أحياء أو أمواتا ، فتدعونا أن نطلب لهم منه عز وجل المغفرة كما نطلبها لأنفسنا . ومن سبقنا من الأئمة والعلماء بعدهم لم يستثنهم الله تعالى ممن سبقونا بالإيمان ، بل ورد النهي عن سب الأموات لما أنهم أفضوا إلى ربهم ، بل ورد أن الساعة لاتقوم حتى يلعن آخر هذه الأمة أولها .

ومن هذا نعلم أن الطعن على أولئك الأئمة ومن تبعهم من العلماء ممن سبقونا بالإيمان مخالف لصريح القرآن وخروج على وصاياه وآية من آيات القيامة . خفت هذه الدعوى دعوى الاجتهاد على أولئك الناس لأنها لاتكلفهم رجوعا إلى نتائج أبحاث أئمة هذا الدين من عهد نزوله لليوم ، فإن ذلك التحقيق لايطيقونه ولا يصبرون عليه ، وإنما الذي يعشقونه ويموتون في هواه دعوى الاجتهاد ، لأنها دعوى لذيذة طنانة رنانة ، فتجد أحدهم يقول ما يقول ويعمل ما يعمل ، فإذا سألته على أي مذهب ما تقول وتفعل ؟ أجابك بكل تبجح : على مذهب الكتاب والسنة . وهو جواب يتضمن أن القوم يجزمون أن مذاهب

الأئمة الأربعة خارجة عن الكتاب والسنة ، وما خرج عنهما ضلال مبين بلا تردد ، فتكون الأمة من صدرها الأول لليوم فى ضلال مبين ، ويتضمن أن الكتاب والسنة بقيا بلا فهم لهذا الزمان القريب من الساعة ، فلما تشرف الوجود بحضراتهم انكشفت خفاياهما وتبينت للناس أحكامهما — وأنا لا أدرى ما قيمة هذا البيان ، وقد مضى من الأمة شبابها وأطيب حياتها وأصبحت فى دور الهرم والشيخوخة . إن أمة تمكث خمسين وثلاثمائة وألف سنة تتخبط فى دياجير الجهالات والضلالات وكتاب ربها وسنة نبيها بينها لا تفهمهما ولا تعمل بهما ، لايشك عاقل أنها أحط أمة رآها هذا الوجود ، هذا قدر هذه الأمة المحمدية عند حضرات مجتهدى زماننا لكننا نرى كتاب ربنا وسنة نبينا يصرحان بخلاف ذلك ، يصرحان بأن هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس ، فليقل لنا حضرات مجتهدينا من نصدّق ؟ أنصدّقهم هم ، أم نصدّق ربنا ورسول ربنا ؟ إنى أخشى أن يطعن أولئك الناس على ما نذكر من الكتاب والسنة ، لأن مذهبهم فى الحكم على الدليل بالصحة وبالبطلان موافقته لهواهم أو مخالفته ، فان وافق صح وإن كان موضوعا ، وإن خالف كان باطلا وإن كان فى أعلى درجات الصحة . والذى يظهر أن هؤلاء الناس لا يغضبون ممن يقول لهم ياأبناء الضالين والضالات ، لأن الذى يحكم على أمة بأسرها حتى أئمتها وعلمائها لا يغضب لذكر أفراد آبائه بالضلال . وإنا نترك هذا لهم .

وهل يدرى القارئ من هم أولئك المجتهدون ؟ الجواب أنهم طبقات مختلفة من أمثال الذين أخبرناك عنهم فيما تقدم من أنهم وصلوا إلى حد أنهم أنكروا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعضهم أضاف إلى إنكار السنة ما فعله بالكتاب وهو فى حكم إنكاره . وقد سبق ما يفهمك ذلك ، وبعضهم يرى الحديث الذى لا مطعن فى صحته فيقول — إذا لم يفهمه أو خالف هواه — هو صحيح السند ، ولكن معناه غير صحيح ،

وبعضهم يرى أن الدّين كله أن تكون مع الناس ظريفا لطيفا توافقهم على كل ما يهوون ، ولا تغضب أحدا منهم ولو بكلمة حق تقولها له ، إذا فعلت ذلك كنت لابأس عليك حتى ولو تركت الإيمان - وبعضهم يرى أن الاجتهاد والاستنباط هو شتم هذه الأمة وطعنها فى الصميم من دينها وعرضها ، وهذا الوصف وإن كان عاما فى جميع هذه الطوائف - له مزيد اختصاص بهذا البعض - وبين يدينا اليوم مجتهدة روى لها أحد العلماء - وهو موجود للآن - حادثة تدل على غيرة سيدنا عمر رضى الله عنه على النساء ، فكان جوابها على تلك الرواية قولها : عمر هذا رجل منحط . هذا حكمها الذى أداها إليه اجتهادها ، وعلة هذا الحكم أنه غيور ، وهذه العلة موجودة عند كل مؤمن ، وهى عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد ، وكذلك ربنا غيور ، ولهذا حرم الفواحش كما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم ، فماذا تقول حضرة المجتهدة ؟ وإنى أعجب من هذه المجتهدة التى تقول هذا فى سيدنا عمر ، الذى لم ير هذا الوجود كثيرا من أمثاله بعد النبيين ، اتفقت على ذلك كلمة الموافق والمخالف . وكيف يكون منحطا يا حضرة المجتهدة من لو سلك فجا لسابه الشيطان وسلك غير فجه كما نطق به الحديث الصحيح . ومن أحكام هذه المجتهدة التى استنبطتها وجاهرت بها ، أن الرجل لايجوز له أن يباشر المرأة بعد أن تحمل ، لأن باقى الحيوانات هكذا ، متى حملت الأنثى لايقربها الذكر ، وهو حكم من مواقف العقول فلنتركه لها دون أى خدش .

ولا أكثر على حضرة القارئ من ذكر أصناف هؤلاء المجتهدين وطبقاتهم واختلاف نحلهم ومذاهبهم ، ومبلغ ما وصلوا إليه من البعد عن الدين الحق بسبب اجتهادهم ذلك . ولعل القارئ يعجب من أن يكونوا مجتهدين وبعيدين عن الحق ، لاتعجب أيها المؤمن ، فان ذلك نتيجة لازمة لاجتهاد لايعتمد على مقدماته ، اجتهاد كلّ مقدماته

الدعاوى الطويلة العريضة التى لاأساس لها إلا الجهل الطويل العريض والغرور الذى لانهاية له ، وصفاقة الوجه التى لاتؤثر فيها القوارع مهما قست . وهل لاجتهاد هذا قدره إلا نتيجة واحدة هى الضلال والإضلال .

والذى جرأ هؤلاء القوم على تلك الدعوى عدم تقديرهم لمقدماتها أو نتائجها التقدير المناسب لها . وقد سبق أن قلنا إن درجات أىّ طائفة إنما يعرفها أفراد هذه الطائفة لاالغريبون منها . فلجهل أولئك الناس بالاجتهاد والمجتهدين ادعوا ما ادعوا . وكيف يعد من طبقات أهل العلم من لا يجيز أن يقلد أحد أحدا ويوجب على الكافة أن يجتهدوا وإن غضبوا وأبوا إلا أن يحسبوا أنفسهم من العلماء ، فليتحملوا إذن الحكم عليهم بأنهم ينكرون قول الله عز وجل (وإِذَا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِالخَوْفِ أَذاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلى الرَّسُولِ وإِلى أُولى الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذينَ يَسْتَنْبِطونَهُ مِنْهُمْ) وقوله تعالى (فَأسألوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاتَعْلَمونَ) فان الآية الأولى تخبر أن العقول تتفاوت ، وهناك أمور تخفى على عقول ولا تخفى على عقول ، ولامت قوما على مباشرتهم مايخفى عليهم وجهه ، وأفهمتهم أن الواجب كان أن يردوا ذلك إلى من لايخفى عليه ، فكان يرشدهم إلى الحق فيه بعلمه ، وهذا غير مايقولون . والآية الثانية تقول فى وضوح إن من الناس من تعرض له أحوال لايعلمها ، وحينئذ عليه أن يسأل من يعلمها ، وهذا كذلك غير ما يقولون . ثم الحس يشهد لما نقول فانك ترى فى الناس من تعالجه الأيام والشهور ، بل وطول حياته على أن يحفظ آية من القرآن ، بل أن يخرج حرفا واحدا من مخرجه فلا يستطيع ، فكيف يكون مثل هذا مجتهدا ؟

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى استامها كل مفلس

كيف يعرف من العلم شيئا من ينكر السنة ، وهى بيان الكتاب كما

يقول عز وجل (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) وهل عرفنا نحن كثيرا مما كلفنا به إلا بالسنة . فقد جاء الكتاب بتكاليف ألفاظها الدالة عليها تدل لغة على غيرها ، فلولا أن السنة بينت أن الشرع نقلها من معانيها اللغوية إلى تلك المعانى الشرعية لكنا ممتثلين التكاليف بمجرد فهمنا تلك المعانى اللغوية والعمل بما تتضمنه . كيف يعرف من العلم شيئا بل كيف يعقل من ينكر الكتاب مع السنة ، وهو لايكون مجتهدا إلا بالكتاب والسنة ؟ بل كيف يكون هذا مؤمنا ؟

وإن شاء القارئ أن يلمس جهل هؤلاء الأدعياء ، فليقل لأىّ واحد منهم : أرجوك أن تخبرنى عن فلان المحدّث ما قيمته بين المحدثين ؟ أو أحب أن أسمع من لفظك المبارك حديثا نبويا واحدا بسنده ، أو أكون شاكرا لو أفهمتنى من أىّ واد من أودية الدلالة دلالة هذا الدليل على هذا الحكم ؟ وتذكر له حكما ودليله ، أو أقبل يدك الكريمة لو علمتنى كيف أعمل إذا حدثت حادثة وليس لها فى الكتاب والسنة دليل صريح ، ولكنى وجدت فيهما أشباها كل شبيه له حكم غير حكم الأشباه الأخرى ؟ لو قلت له هذا وما أشبهه من المسائل التى لاتخفى على طلبة العلم فضلا عن الأئمة المجتهدين ، مادرى ماتقول ، فضلا عن أن يجيب عنه .

ولقد أردت يوما أن أسبر غور إمام كبير من هؤلاء الأئمة فسألته عن مسألة ذات وجهين : أحدهما معتقده فسارع إلى الجواب بما يعتقد ، فرأيت أن أخدش هذا الجواب خدشا بسيطا ، فما كان أسرعه إلى الرجوع عن جوابه بمجرد سماعه هذا الخدش ، فضحكت وقلت : هكذا يكون الاجتهاد ، وهكذا يكون المجتهدون .

كيف يصدق القارئ أن يكون أمثال من ذكرنا مجتهدين ، لاسيما

إذا علم أنهم من الاعوجاج بحيث إن بعضهم لايصلي ولا يصوم ولا يزكي ولا يحج ، ولا يتهيب أمورا أخرى لها المكان الأول في باب الرذيلة ، وفي فطنة القارئ ما يغنينا عن تلويث القلم في تلك القاذورات . ومن الجرأة على الفتوى بدرجة أنك لو وجهت إلى أجهلهم أدق مسألة لأجاب عنها فورا بدون تأمل ولا روية ، وربما لو وجهت هذه المسألة إلى سيدنا جبريل وميكائيل وإسرافيل وجميع الأنبياء والمرسلين وأتباعهم العلماء الراسخين لوقفوا أمامها موقف الحيرة والارتباك . ومن الرغبة في الدنيا والشغل بها بحيث لايتحرك إلا لها ، وربما كانت صلاته وصيامه لها إن كان يصلي ويصوم . ومن الغفلة عن الله تعالى بدرجة أنهم بادروا إلى ما نحكي عنهم من التلاعب بدين الله تعالى . لما أيقنوا أنهم لايعاقبون على اعتقاد يعتقدونه ولو كان كفرا بالله تعالى ، ولا على قول يقولونه ولو كان يعتدى على الأديان كلها ، ولا على فعل يفعلونه ولو بلغ ما بلغ من باب الرذيلة متى غفلت عنهم عين القانون الأرضي وكانوا في مأمن في يده . وتيقنوا مع هذا أن العصر لايزن كل ما ينتسب إلى العلم بميزان النقد الصريح العادل كما كان في العصور التي قدمنا لك الكلام عنها ، ولو شابه هذا العصر تلك العصور فيما نقول ، لكان حمى العلم أعز من أن يحوم حوله الأدعياء . وكيف يحومون وفي ذلك تكون فضيحتهم التي تدخل معهم القبور ؟

ومن سوء الاعتقاد بالحالة التي حكينا لك بعضها فيما مضى ، ومن الخيانة في العلم والتصرف في نصوصه بدرجة لايعلم القارئ مداها إلا إذا تناول كتابا من كتبهم وقرأه من أوله إلى آخره وراجع نقوله مراجعة دقيقة ، لا أقول إنهم يتصرفون في ألفاظ النصوص فقط ، بل أقول إن تصرفهم في معاني ما ينقلون أشد وأشمل ، هؤلاء هم مجتهدو زماننا الذين ملأوا الأرض تشنيعا على من يخالفهم ويحذر الجهلة عن التقليد .

إنى أصرح ، وألتى تصريحى هذا بين أظهر الناس جميعا اليوم ، أنى منضم إلى علماء الأمة الذين قرروا أن باب الاجتهاد مغلق ، وأؤكد أنا أنه صفح فى هذه الأزمنة بصفائح من فولاذ ، وكيف لاأصرح بذلك وأنا أرى بعينى آثار اعتقاد جواز الاجتهاد تفسد فى الأرض فسادا عظيما ، ليس معنى ما أقول أن العقل يمنع أن يوجد مجتهد فى هذه الأعصار أو فيما بعدها ، إن هذا لانقوله ولا نرى من يقوله فى زمرة العقلاء ، لأنه حكم على الله تعالى بأنه منع فضله عن الناس وسد عليهم هذا الباب ، أو أنه ليس بقادر أن يخلق من فيه استعداد الاجتهاد . والأول حكم يحتاج إلى وحى ولا وحى ، والثانى كفر بالله عز وجل . ولكنى رأيت فسادا عظيما ينفذ إلى الناس فى دينهم ودنياهم ، فسددت كما سد غيرى ينبوعه ولمحت استعدادات ضعيفة شرحت آثارها ، وحكمت أن هذه استعدادات غير استعدادات الاجتهاد ، هذا كل ما فعلته وهو ظاهر كل الظهور من كلامى لمن يتأمله ولا يطير بالكلمة يسمعها دون أن يدرى من أين جاءت وإلى أىّ واد ذهبت .

ولست أرى علاجا لهذه الحالة التى تمثل الفوضى فى العلم أقوى وأظهر تمثيل إلا رقابة دينية فعالة تقف كل إنسان عند حده ، وإن لم يقف أدبته الأدب الرادع الذى يجعله عبرة لغيره ، بعد أن يفيده هو الفائدة المقصودة . وأما ترك الناس هكذا حبلهم على غاربهم يقول كل امرئ فى دين الله ما يقول ويفعل ما يفعل ، فهذا ما لايرضاه عقل ولا دين . نعم لقد وصلت الفوضى العلمية اليوم إلى حالة لاتحتمل ، وكيف تحتمل وقد وصلت إلى حد أن أكبر عالم دينى لو تكلم بكلمة دينية ينصح بها عباد الله ، وله عليها ماله من الأدلة والبراهين من كتاب ربه وسنة رسوله ، لقام عليه ما لايحصى من الشبان والشابات فسلقوه بألسنة حداد ، ومزقوا عرضه تمزيقا ، وجعلوه فى الجهل الوحيد الفريد وكثير من هؤلاء يعجز عن قراءة آية واحدة ، وقد لايكون رأى

فى حياته حديثا واحدا ، وكثير منهم ثم كثير لم يقف موقف عبودية لربه فى كل حياته ، ولكنه الجهل والغرور وعدم الحياء وعدم الرادع ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

لقد أزرى هؤلاء الجهلة بالمجتهدين ، وفضحوا العلماء ، وهوّنوا الدين وصغروا من شأنه ، وجعلوا الاجتهاد ألعوبة من الألاعيب وأضحوكة من الأضاحيك ، وما كنت أظن أن تصل الجرأة على الاجتهاد فى دين الله إلى هذا الحد ، ولولا أنى أرى هؤلاء الناس بعينى ما صدّقت ما يقال عنهم . وكيف أصدّق أن يكون من طبقات المجتهدين الذين نتيجة اجتهادهم دين تدين به الأمة ، إنسان ربما لم ير بعينه كتابا فى الشريعة ولا جلس طول حياته بين يدى عالم دينى جلسة واحدة ، وكلّ الذى عنده من المؤهلات وجه صفيق لايعرف الحياء ولا يعرفه الحياء ، وكلما كان أقوى فى هذه الصفة يكون الإمام الأكبر الأشهر .

وإن شئت أن ترى وتلمس الفرق بين مجتهدينا وأهل الاجتهاد الصحيح ، فقل : مجتهدنا ربما لم يركع لله تعالى ركعة واحدة لافرضا ولا نفلا ، وأبو حنيفة يصلى الفجر بوضوء العشاء أربعين أو خمسين سنة ، وكل ليله ركوع وسجود . مجتهدنا قد لايكون صام يوما واحدا حتى ولا فى رمضان ، وابن حنبل يصوم الدهر كله لا يفطر إلا يوما واحدا احتجم فيه . مجتهدنا لايقف عند سؤال مهما دق واستعصى ، ومالك بن أنس يقف فى مسألة واحدة بضع عشرة سنة لم يتفق له فيها رأى قاطع ، ويسئل عن ثمان وأربعين مسألة فيقول : لاأدرى فى اثنتين وثلاثين منها ، ويبكى من الفتاوى والمسائل ويقول : إنى أخاف أن يكون لى من المسائل يوم أى يوم . مجتهدنا قد لايكون رأى حديثا واحدا ويغضب كل الغضب ممن يتردد فى الاعتراف باجتهاده ، وابن حنبل يحفظ ألف ألف حديث كما يقول أبو زرعة ، ولم يكتب سوادا فى بياض إلا حفظه كما قال ابنه عبد الله ، ومع ذلك

لا يتفق معاصروه على أنه من الفقهاء المجتهدين . مجتهدنا لو حفظ حديثا في الصباح ينساه في المساء لغلبة النسيان على الأذهان في هذا العصر غلبة لاتكاد تتصور ، وما كان يعرف هذا النسيان في علماء السلف فضلا عن مجتهديهم ، بل كانت صدورهم سجلات لا تمتد يد المحو إلى ما بها بحال ، ولذلك حفظ الله بهم الدين ، ولو كانوا مثلنا ما وصل إلينا من دين الله كلمة ، وقد سبق التنبيه على ذلك . مجتهدنا يقبل قدميك لو عرفته بعظيم أىّ عظيم من عظماء الدنيا ولو وهما ولو كان من أكفر الكفار ، ويرى صحبة هذا والتردد إليه شرفا لا يتاربه شرف ، وأهل الاجتهاد الحق يفرون من خلفاء المسلمين ويخطبون لتلك الصحبة فيأبون كل الإباء ، بل يكرهون إكراها عليها ، ويهانون رجاء أن يقدموا عليها ، فيتحملون ما يهددون به وهو أليم ، ولا يسمحون أن يصحبوا أولئك الخلفاء ، وقد سبق ما يدل على ذلك . مجتهدنا يتهالك على المال ولا يبالى من أىّ واد وصل إليه ، ولو من الربا أو من مال يتيم ، وأبو حنيفة يتحرج من ظل حائط مدينه . مجتهدنا ربما اقتحم أخطر موبقة وهو يضحك لجرأته على الله ، بل ربما كفر بالله العظيم وخلع ربقة الإسلام من عنقه فاهما أنه بذلك وصل إلى ذروة مقام الاجتهاد وأئمة المسلمين في بكاء وعويل وانتحاب خوفا ووجلا على أنفسهم أن يكونوا مغضوبا عليهم من ربهم مع أنهم في طاعته ليلا ونهارا طول حياتهم لا تستثنى واحدا منهم .

سمع الشافعى حديثا في الرقائق فأغمى عليه حتى قيل مات ، وسمع قارئا يقرأ قوله تعالى (هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) فتغير لونه واقشعر جلده واضطرب اضطرابا شديدا وخرّ مغشيا عليه ، فلما أفاق جعل يقول : أعوذ بك من مقام الكاذبين وإعراض الغافلين ؛ اللهم خضعت لك قلوب العارفين ، وذلت لك

رقاب المشتاقين ؛ إلهى هب لى جودك ، وجللى بسترك . واعف عن تقصيرى بكرم وجهك .

وكان أبو حنيفة يصلى بالليل ويبكى من خشية ربه حتى يرحمه جيرانه من كثرة بكائه .

وتقدم أن سيدنا مالكا كان يبكى ويقول : إنى أخاف أن يكون لى من المسائل يوم أى يوم .

وتقدم أن سيدنا أحمد بلغ به الخوف من الله تعالى إلى أنه كان يبول الدم . مجتهدنا إذا ذكر عنده أئمة الإسلام ، لسانه السيف البتار فى أعراضهم يمزقها تمزيقا . وتراه عند ذكر أولئك الهداة كأن حمى أخذته فأذهبت عقله وجعلته يهذى بما لا يعى . وما كان أئمة الإسلام هكذا ، فهذا الإمام الشافعى رضى الله عنه لما زار أبا حنيفة فى قبره ترك القنوت فى صلاة الصبح أدبا معه . ولم ير من المناسب أن يجاهر هذا الإمام الأعظم بالخلاف على مرأى منه ومسمع . وكان يتوسل به إلى الله تعالى اعتقادا منه أنه جدير بذلك . وقال فيه : الناس كلهم عيال على أبى حنيفة فى الفقه . وقال فى سيدنا مالك رضى الله عنه : إذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب . وقال فى سيدنا أحمد بن حنبل تلميذه : خرجت من بغداد وما خلفت بها أفقه ولا أورع ولا أزهد ولا أعلم من أحمد . وقال فيه أيضا :

قالوا يزورك أحمد وتزوره　　قلت الفضائل لا تفارق منزله
إن زارنى فبفضله أو زرته　　فلفضله فالفضل فى الحالين له

وقال لمن معه قميص أحمد : أما القميص فلا أفجعك فيه ، ولكن بله وارفع إلىّ الماء لأتبرك به .

ويقول مالك يخاطب الشافعى لما سأله عن أبى حنيفة : رأيت رجلا لو ناظرك فى هذه السارية أن تكون ذهبا لقام بحجته . وقاسم الشافعى

ماله غير مرة اعترافا بفضله . واستحسن الشافعي مالا عظيما أهدى إليه فأهداه له كله ، فكلمه أن يبقى له دابة يركبها فأبى ، واستعظم أن يركب تربة على دابة وطئها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدميه .

وقال أحمد في الإمام الشافعي : كان كالشمس للدنيا ، وكالعافية للناس ، فهل لهذين من خلف ؟ .

مجتهدنا ربما كان لم يحفظ القرآن من آية واحدة ، وإذا كان يحفظه كله فقد لايكون تجاوز عدد الأصابع في ختمه ، وأبو حنيفة يحصى ما قرأه من ختمات القرآن فيكون سبعة آلاف ختمة .

هذه مقارنات ذكرناها مرغمين وفى النفس ما فيها من ذكرها ، وإنما ذكرناها لينفذ منها القارئ إلى حيث يرى أين أئمة زماننا من أئمة الإسلام حقا ، ولولا مقام البيان ما سمحت نفسي بهذه المقارنة أبدا ، ومن يرضى أن تقرن الملائكة بالكلاب ؟ .

ثم أرجو أن يفهم المطلع الكريم أنى إنما كتبت هذا الفصل أبين به مقام الاجتهاد لمن لعله لايعرف قدره ، ورجاء أن يراه بعض أولئك المجتهدين المساكين ، ويكون به بقية من الشعور الحى ، فيحس بأنه ترك الجادة وركب الصعب وحاد عن سبيل الأمان إلى سبيل الخطر المحقق ، وكى يطلع عليه أناس ربما وقع فى نفوسهم استحسان ما يقوله أولئك المفتونون ، وقياما بما يجب على العلماء ، من محاربة البدع إذا رفعت رأسها ، ومن القضاء على الباطل إذا حاول أن يلبس ثوب الحق ؛ وأىّ قيمة للعالم إذا لم يقف فى وجه العادين حدود الله اللاعبين بدينه الخارجين على أوليائه وأحبابه . إن العالم جندى من جنود الله عز وجل بل هو القائد الأعلى لجنود الله ، فان كل مؤمن جندى من جنود الله ، ولعله لايخالفنى أحد فى أن من العار العظيم والفضيحة التى لاتدانيها فضيحة أن يؤتى الإسلام فى صميمه وقادة حراسه ينظرون مكتوفة أيديهم مقيدة أرجلهم خرسا ألسنتهم لايبدون ولا يعيدون .

إن الجهاد باللسان والقلم فى هذا العصر ليس بأقل من الجهاد بالسنان فى زمن الجهاد ، وإنى لأرى واجبا على العلماء خصوصا فى هذا الزمن الذى تموج فيه الفتن كموج البحر ، أن يبينوا للناس ما يرضاه ربنا من أعمالهم وما لا يرضاه حتى لا يبقى لأحد عذر فى جهل ما هو عليه من بلايا ورزايا دينية ودنيوية .

وإنى أعود فأقول لأولئك الزاعمين أنهم مجتهدون إذا لم تعلموا أيها الناس ما تفعلون ، فاعلموا أنكم تلعبون بالنار أو تمزحون مع البحر وهو غضبان ، فان كان لكم طاقة بالنار أو بالبحر فتمادوا على ما أنتم عليه وإلا فالفرار الفرار من هذا الموقف المذهل ، والله تعالى أعلم .

الشفاعة

نحن فى زمن اتسع فيه الخرق على الراقع ، فانك لا تلتفت إلى طائفة لتفهمها قدر بعدها عن الجادة إلا وتبدو لك طائفة أخرى أشد بعدا عن المنهج القويم ، والكلّ فى حاجة قصوى لأن تعالجهم حتى تقتلع من أنفسهم شجرة الزيغ التى أضلتهم ، وتغرس مكانها شجرة الرشاد والإرشاد . نعم لقد أصبحنا فى زمن سادت فيه الفوضى فى العقائد لدرجة أن يجهر بالكفر الصريح من كان بالأمس يتظاهر بالإيمان الصادق دون أن يجد من يلتفت إليه التفات استغراب وإنكار . وسادت فيه الفوضى فى العلم لحد أن أصبحت دفة الإرشاد بأيدى شبان وشابات لو سألت أحدهم عن ربه لحار كيف يقول ، ومع هذا لو تكلم أكبر رأس من هداة الخلق العلماء بكلمة ينفر بها عن رذيلة أو يحرّض على فضيلة ، لقام عليه أولئك الأولاد كالكلاب الضارية فنهشوا عرضه نهشا ورموه بالدواهى مما جعل العلماء اليوم فى انكماش ، حطموا أقلامهم وخزنوا ألسنتهم فى أفواههم ، وتركوا الأمر لأولئك المفسدين يفتحون كل يوم من أبواب جهنم ما يفتحون ، ويدعون الناس إلى

ولوجها واقتحامها ، وتهافت الناس تهافتا إلى ما يدعونهم إليه . حتى أصبح العمل كالعلم ، والاعتقاد فوضى لا يميز صحيحه من فاسده . ولا يفكر أحد في إيقاف هذا الأمر عند حد . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

نقول هذا لمناسبة أنا بصدد أن نتكلم مع كثير من الناس أنكروا حتى الشفاعة يوم القيامة ، وهي ثابتة بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فانكارها عجيب ثم عجيب إذا صدر من رجل يؤمن بالله واليوم الآخر .

أما ما يثبتها من كتاب الله تعالى فآيات كثيرة ، منها قوله تعالى (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ) ومنها قوله عز وجل (وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنْ ارْتَضَى) ومنها قوله تعالى (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لاتُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى) .

فان الآية الأولى تثبت شفاعة باذنه عز وجل . والآية الثانية تثبت الشفاعة لمن ارتضى ربنا أن يشفع فيه . والآية الثالثة كالأولى تثبت شافعين باذنه عز وجل ، وقيد هذا الإذن يفهم أن الشفاعات كرامات يكرم الله تعالى بها من يشاء من عباده ليرى الخلق فضله عنده . لا أنها كشفاعاتنا هنا يصمم أحدنا على الأمر ينفذه من العقوبات فيكلمه شفيع من أرباب الوجاهة أن ينقض ما أبرم ، فيكون ذلك في الحال ، يحمله على ذلك رهبة منه أو رغبة فيه . إن الشفاعات التي بهذا المعنى مستحيلة على ربنا عز وجل ، لأنه إذا أراد شيئا نفذه ، ولو عارض فيه جميع العالمين ، وأرادوا أن لا ينفذ ، والرغبة والرهبة لا يتصف بهما لأنه رب كل شيء القادر القهار .

وأما ما يثبت الشفاعة من السنة الصحيحة فكثير ، من ذلك حديث الشفاعة المشهور الذي اتفق على روايته البخاري ومسلم ورواه غيرهما ،

وفيه « ثُمَّ يُقَالُ يا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رأسَكَ سَلْ تُعْطَهْ واشْفَعْ تُشَفَّعْ) ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « شَفَاعَتِي لأهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي » رواه الترمذى عن سيدنا جابر . وقال سيدنا جابر « من لم يكن من أهل الكبائر فماله وللشفاعة ؟ » وكذلك روى هذا الحديث النسائى وأبو داود وأحمد وابن حبان والحاكم . ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « يَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيامَةِ ثَلاثَةٌ : الأنْبِياءُ والعُلَماءُ والشُّهَدَاءُ » رواه ابن ماجه . ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « يَشْفَعُ الشَّهِيدُ فِى سَبْعِينَ مِنْ أهْلِ بَيْتِهِ » ومن ذلك ما رواه الشيخان وغيرهما من حديث طويل « ثُمَّ يُضْرَبُ الجِسْرُ ـ الصراط ـ عَلَى جَهَنَّمَ وَتَحِلُّ الشَّفاعَةُ ويَقُولُونَ : اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ . قيل يا رسول الله : وما الجِسْرُ ؟ قال : دَحْضٌ مَزِلَّةٌ فِيهِ خَطَاطِيفُ وكَلالِيبُ وحَسَكَةٌ ـ تشبيه ظاهر ـ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيها شُوَيْكَةٌ يُقالُ لَهَا السَّعْدانُ ، فَيَمُرُّ المُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ العَيْنِ وكالْبَرْقِ وكالرِّيحِ وكالطَّيْرِ وكأجاوِيدِ الخَيْلِ والرِّكابِ ، فَناجٍ مُسَلَّمٌ وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ وَمَكْدُوسٌ ـ مدفوع ـ فى نارِ جَهَنَّمَ حَتَّى إذا خَلَصَ المُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ ، فَوَالَّذِى نَفْسِي بِيَدِهِ مامِنْ أحَدٍ مِنْكُمْ بِأشَدَّ مُناشَدَةً لله فى اسْتِقْصاءِ الحَقِّ مِنَ المُؤْمِنِينَ لله يَوْمَ القِيامَةِ لإخْوانِهِمُ الَّذِينَ فى النَّارِ ، فَيَقُولُونَ رَبَّنا كانُوا يَصُومُونَ مَعَنا ويُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ ، فَيُقالُ لَهُمْ : أخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ . فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ ـ وجوههم ـ عَلَى النَّارِ ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثِيراً قَدْ أخَذَتِ النَّارُ إلى نِصْفِ ساقِهِ وإلى رُكْبَتَيْهِ ، ثُمَّ يَقُولُونَ :

رَبَّنا ما بَقِيَ فِيها أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنا بِهِ ، فَيَقولُ : ارْجِعوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ في قَلْبِهِ مِثْقالَ دينارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجوهُ ، فَيُخْرِجونَ خَلْقاً كَثيراً ، ثُمَّ يَقولونَ : رَبَّنا لَمْ نَذَرْ فيها مِمَّنْ أَمَرْتَنا أَحَداً ، ثُمَّ يَقولُ : ارْجِعوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ في قَلْبِهِ مِثْقالَ نِصْفِ دينارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجوه ، فَيُخْرِجونَ خَلْقاً كَثيراً ، ثُمَّ يَقولونَ : رَبَّنا لَمْ نَذَرْ فيها مِمَّا أَمَرْتَنا أَحَداً ، ثُمَّ يَقولُ : ارْجِعوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ في قَلْبِهِ مِثْقالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجوهُ ، فَيُخْرِجونَ خَلْقاً كَثيراً ، ثُمَّ يَقولونَ : رَبَّنا لَمْ نَذَرْ فيها خَيْراً » وكان أبو سعيد راوي هذا الحديث يقول : إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرءوا إن شئتم (إنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ وإنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها ويُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظيماً) فيقول الله تعالى : شَفَعَتِ الملائكةُ وشَفَعَ النَّبِيُّونَ وشَفَعَ المُؤْمِنونَ ولَمْ يَبْقَ إلاَّ أَرْحَمُ الرَّاحِمينَ ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْها أَقْواماً لَمْ يَعْمَلوا خَيْراً قَطُّ — يعني غيرَ الإيمان — قَدْ عادوا حُمَماً ، فَيُلْقيهِمْ في نَهْرٍ في أَفْواهِ الجَنَّةِ يُقالُ لَهُ نَهْرُ الحَياةِ ، فَيَخْرُجونَ كَما تَخْرُجُ الحِبَّةُ — بذور البقل — في حَميلِ السَّيْلِ — ما يحمله السيل من الطين — ألا تَرَوْنَها تَكونُ إلى الحَجَرِ أو إلى الشَّجَرِ ما يَكونُ إلى الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وأُخَيْضِرُ ، وَما يَكونُ مِنْها إلى الظِّلِّ يَكونُ أَبْيَضَ فقالوا يا رسولَ الله كأنك ترعى بالبادية ، قال : فَيَخْرُجونَ كاللُّؤْلُؤِ في رِقابِهِمْ الخَواتِيمُ يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الجَنَّةِ هَؤُلاءِ عُتَقاءُ اللهِ الَّذينَ أَدْخَلَهُمُ الجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلوهُ ولا خَيْرٍ قَدَّموهُ ، ثُمَّ يَقولُ : ادْخُلوا الجَنَّةَ فَما رَأَيْتُموهُ فَهُوَ

لَكُمْ ، فَيَقولونَ : رَبَّنا أعْطَيْتَنا مالمْ تُعْطِ أحَداً مِنَ العالَمينَ ، فَيَقولُ : لَكُمْ عِنْدى أفْضَلُ مِنْ هَذَا ، فَيَقولونْ : يا رَبِّ وَما أفْضَلُ مِنْ هَذا ؟ فَيَقولُ : أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضَائى فَلا أسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أبَداً » .

هذا بعض ما ورد من كتاب ربنا وسنة نبينا يدل على أن الشفاعة واقعة يوم القيامة ، فمن لم يؤمن بها مع كل هذا ، فانى أبشره بما بشره به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن منيع وهو قوله عليه الصلاة والسلام « شَفاعَتِى يَوْمَ القِيامَةِ حَقٌّ ، فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِها لَمْ يَكُنْ مِنْ أهْلِها » وقد عد العلماء هذا الحديث من المتواتر ، فمن أحب أن لاتناله الشفاعة من المؤمنين فليتمادَ على إنكاره الشفاعة ، ومن أحب أن تناله فليصدق ربه ونبيه ويوافق أهل السنة والجماعة فى الاعتراف بها ليكون معهم من الناجين .

ولعل كل ما قدمنا من الموضوعات وضح كل الوضوح بما أوردنا عليه من دلائل قاطعة وبراهين ساطعة لايمكن لمن أوتى نصيبا من الفهم أن ينكر شيئا منها إلا إذا كان لايبالى بضحك الناس عليه إذا أنكر الشمس وهى فى كبد السماء .

وإنى تعمدت أن أوضحه كما رأى القارئ ليعرفه أناس لايعرفون ، وليصحح به أناس آخرون عقائد فى نفوسهم تنافيه ، وليراه أناس غير هؤلاء وهؤلاء غلاظ شداد على المؤمنين فيتبين لهم أن لاحق لهم فى تلك الغلظة والشدة ، فيخففوا من وطأتهم الثقيلة . وليزداد به الذين آمنوا إيمانا ، فانه إن شاء الله نور (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) والله تعالى أعلم .

شهادة العلماء الأعلام

لكتاب غوث العباد ببيان الرشاد

اختصرناها من تقريظ الطبعة الأولى نظرا لضيق المقام

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد ربنا عز وجل على جزيل آلائه ، ونشهد أن لا إله إلا الله شهادة من عرف الحق فعمل به وعلمه ، فإن ذلك هو الذي يدعى في ملكوت السماوات عظيما ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله ذو الجاه العظيم والمقام الأسمى ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى إخوانه الأنبياء ، وعلى من تبعهم حريصا على سلوك نهجهم ، فإنهم بركة الأمم في كل زمان .

أما بعد : فقد أجلنا جياد الأفكار في ميادين هذه العجالة الكريمة التي سميت بحق « غوث العباد ببيان الرشاد » فإذا هي حق صراح - وماذا بعد الحق إلا الضلال - تؤيده حجة دامغة - وهل يقف في وجه دامغ الحجج إلا مبطل مكابر - تعبر عنه عبارة ما أرقها وما أدقها - ومن يستطيع أن يخدش بيان ملك البيان ؟ - يذود عن أحباب الله أنبياء وأولياء فوق ما يذود الأسد عن عرينه - في غضبة لهم على من يستخف بشأنهم ، إنما تشبهها غضبة البحر إذا هاج - ومن في قلبه ذرة من الإيمان ثم لا يغضب لأحباب ربنا إذا استخف بشأنهم - تحرى عقائد معينة فشرح الصدور بشرح ما عليه فيها الأمة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها في هذا العصر ، وفي جميع عصور الإسلام المتقدمة لا نعرف فيها سوى ما شرح - وهل إذا تكلم الحق يعرف المؤمنون سوى ما يتكلم به ؟ - ونحن لا يقع منا موقع الغرابة أن تكون هذه العجالة بهذا المقدار ،

ومؤلفها حضرة صاحب الفضيلة الشيخ مصطفى أبو سيف الحمامى أحد علماء الأزهر وخطيب المسجد الزينبي ، الذى ما رأيناه وقف موقفا إلا رأينا الحق بجانبه يحوطه من كل نواحيه ، حفظه الله وزاده توفيقا ليرينا كل يوم آية من آياته يؤيد بها الحق ويخذل الباطل .

وإنا فى هذا المقام لا يسعنا إلا أن ندعو الأمة بأسرها إلى اعتقاد ما تضمنته هذه العجالة ونبذ ما عداه ، والله الهادى إلى سواء السبيل .

حرر فى ٥ محرم سنة ١٣٥٠ هـ

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء
ختم

السيد محمد بن محمد زباره
اليمنى أمير القصر السعيد
بصنعاء اليمن

محمد الببلاوى
خطيب المسجد الحسينى ونقيب
الأشراف بالديار المصرية

محمد حبيب الله الشنقيطى
خادم العلم بالحرمين الشريفين
وفقه الله

محمود أبو دقيقه
مدرس بتخصص
الأزهر

دسوقى عبد الله العربى
من هيئة كبار
العلماء

محمد عبد الفتاح العنانى
المدرس بكلية الشريعة
الإسلامية

محمد زاهد الكوثرى
وكيل المشيخة الإسلامية
بالآستانة سابقا

محمد محمد البحيرى
من علماء الأزهر الشافعية
بالقسم الثانوى

محمد حفنى بلال
وكيل الحرم الزينبي
وأحد علماء المالكية

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

خاتمة الطبع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى قيض للدين أناسا اصطفاهم للذبّ عن حياضه ، فكشفوا الغامض وبينوا طريق الحقّ ودحضوا الباطل ، فكان لهم ما يشاءون عند ربهم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الشفيع لأمته يوم القيامة من ذنوبهم ، وعلى آله وصحبه الذين اقتفوا آثاره وتمسكوا بشرائعه فلاقوا الله وهو عنهم راض .

وبعد فقد تم بحمد الله وحسن توفيقه طبع كتاب :

غوث العباد ببيان الرشاد

مصححا بمعرفة لجنة من العلماء برياسة الشيخ أحمد سعد على

القاهرة فى { ٢٤ صفر ١٣٧٠ هـ
٤ ديسمبر ١٩٥٠ م

ملاحظ المطبعة
محمد أمين عمران

مدير المطبعة
رستم مصطفى الحلبي

فهرست

غوث العباد ببيان الرشاد

صحيفة

صحيفة